

تأليف
نور الدين ناس الفقيه



أحمد بن عجيبة

شاعر التصوف المغربي

الدكتور نورالدين ناس الفقيه

رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة من كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

إشراف الأستاذ الدكتور أحمد العراقي

موسم: **1426**هـ- **2005**م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا مشاحة في أن الأدب هو الحال الناطق واللسان المعبر عن تطلعات الأمة وطموحاتها، والمصور لآمالها وآلامها وهو يساهم إلى جانب مكونات أخرى: علمية، فكرية، تاريخية...، في ائتلاف النسيج الحضاري لهذه الأمة وربطه بإطارها المرجعي متمثلا في التراث الأصيل.

ولا شك أن الأدب العربي في المغرب الأقصى، باعتباره رمزا لحضارتنا ومعبرا عن هويتنا، قد عانى الأمرين وهو يحاول أن يجد لنفسه مكانا بين آداب الأمم الأخرى ولعل ذلك راجع، بنسبة مهمة، إلى الإجحاف الذي طاله من عدد غير يسير من المبيتين المغرضين الذين صموا آذانهم وأبوا أن يعترفوا بوجود أدب مغربي قائم الذات، ذي خصائص ومميزات، فنعتوه تارة بالضعف، ووسموه أخرى بالتبعية، ولمزوه عن غير روية، بأنه أدب فقهاء...

والمتصفح للشعر المغربي، عبر تاريخه الممتد، وبالخصوص في العهد العلوي الثاني (1171هـ- 1238هـ/ 1757م- 1823م) يكتشف بسهولة بطلان تلك الادعاءات المغرضة أمام الازدهار الكبير الذي عرفه هذا الشعر والانتشار الواسع لمختلف أغراضه، سيما وانه خاض في مجموعة من العوالم الاجتماعية، السياسية، الفكرية... علاوة على مشاركة العلماء الواسعة في العملية الإبداعية الشعرية ومساهمة سلاطين الدولة العلوية (ونخص بالذكر في هذه المرحلة المولى سليمان) في تشجيع الحركة الأدبية وتحفيز الأدباء...

وقد شكل "الاتجاه الصوفي" أحد أقوى الاتجاهات الشعرية في هذا العصر، ويمثل شاعرنا "أحمد بن عجيبة" أبرز من حملوا لواءه وخاضوا في موضوعاته المتشعبة.

ويأتي اهتمام هذا البحث المتواضع بدراسة شعر "ابن عجيبة" في سياق رصد ما يزخر به المتن الشعري الصوفي بالمغرب من مميزات موضوعية وفنية.

ولئن عرف "ابن عجيبة" صوفيا من كبار شيوخ التربية في القرن 13هـ/ 18م، فإنه لم يعرف شاعرا أدبيا بالقدر نفسه، وذلك راجع في نظري إلى شح الدراسات، إن لم أقل ندرتها، التي تناولت إبداعه الشعري وحاولت مقاربته أو تحليله. ويمكن أن أشير، في هذا الصدد، إلى دراسة المستشرق الفرنسي الدكتور "جان لوي ميشون" (J.L. Michon)[1] التي تضمنت بعض الإشارات الأدبية والنقدية في المتن الشعري "العجيبي"، علاوة إلى إشارات أخرى وردت في بعض الدراسات التي تناولت الشعر الصوفي بالمغرب في هذه الحقبة، وأخص بالذكر دراسة أستاذنا الدكتور "أحمد العراقي"[2] ودراسة الدكتور "عبد الوهاب الفيلالي"[3] وغيرها مما يعد على رؤوس الأصابع.

وقد حاولت، في هذا العمل المتواضع، دراسة المتن الشعري "العجيبي" انطلاقا من مقاربة لسانية أدبية تروم رصد الحقول المعجمية التي يزخر بها هذا المتن، والنفاذ منها إلى بواطن المعاني، وذلك بالنظر إلى النتائج الباهرة التي أفرزها هذا الصنف من التحليل في الكشف عن دلالة الحقول (Champs sémantiques) ومعرفة خصائص المفردات المحورية الدلالية، إضافة إلى معرفة الخصائص التركيبية والصرفية والإيقاعية...

---

[1]- L'autobiographie (FAHRASA) du saufi marocain AHMAD Ibn' AGIBA, Leiden 1969.

[2]- الشعر الصوفي ضمن: الشعر المغربي على عهد محمد الثالث وابنه سليمان (موضوعاته الكبرى ومقوماته الفنية)، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها. موسم 1991- 1992. القسم الأول/ الجزء الثاني (ص 314- 327) مرقونة بكلية الآداب بفاس.

[3]- شعر التصوف في المغرب خلال القرن 13هـ. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب. مرقونة بكلية الآداب بالرباط 1991- 1992

وترتبط هذه الرؤية التحليلية بمناهج الدراسات الأدبية الحديثة التي تجعل النص مشاهدا بدل أن يكون شاهدا. فالنص المشاهد يجعل القارئ ينطق ما بين يديه عوض أن ينساق مع ما يمليه عليه هذا النص لأول وهلة، فيظل محصورا في دائرة الفهم، وفي أحسن الأحوال في دائرة التحليل السطحي، دون أن يتخطاها إلى دائرة التأويل.

ومما سهل مأموريتي، نسبيا، كون أشعار "ابن عجيبة" مجموعة في ديوان مثبت ضمن فهرسته[1]، حيث توافر لدي كم لا بأس به منها، صلح لأن يكون أرضية لهذه الدراسة، زد على ذلك سابق احتكاكي بالمنهج اللساني- الأدبي الذي وظفته في دراسة "مخصص ألفاظ الرثاء عند أبي ذؤيب الهذلي" (دراسة معجمية ودلالية) لنيل الإجازة من كلية الآداب بوجدة سنة 1996.

كما يسر لي الرجوع إلى كتاب "معراج التشوف إلى حقائق التصوف" لسيدي أحمد بن عجيبة، بعضا من مهام التحليل، إذ وجدت فيه عددا مهما من المصطلحات الصوفية التي ترددت عند شاعرنا في الديوان، وخدمت هذا البحث خدمة جلى نظرا لارتباطها الوثيق بمنهج البحث القائم على المقاربة اللكسيكولوجية.

وقد اقتضت خطة العمل تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. وقفت في الفصل الأول، بإيجاز شديد، على ملامح الواقعين الصوفي والأدبي بالمغرب إلى غاية القرن 13هـ/ 18م بما يفي بمعرفة الظروف التي انبثق في ظلها إبداع شاعرنا مع الإشارة إلى ما له علاقة بحياته إنسانا ومتصوفا وشاعرا.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة البنية المعجمية، وما تحيل عليه من مضامين، فعرفت الحقول المعجمية وحددتها انطلاقا من تصور "جاكلين بيكوش (J. Picoche

[1]- انظر معلومات عنها ضمن ص 17، من هذا البحث.

و"جورج مونان" (G. Mounin) و"محمد مفتاح" للمعجم وما يرتبط به من حقول دلالية أفضت إلى الوقوف على مضامين خمسة رئيسة في الديوان وهي: الحب الإلهي (أو التلويحات الخمرية)، الحقيقة المحمدية، التوسل، مدح سالكي الطريق وبيان شروطهم، ثم الزهد ومتعلقاته.

وقد خصصت الفصل الثالث لدراسة البنية التركيبية انطلاقا من المستوى النحوي والمستوى البلاغي، فدرست في الأول أزمنة الفعل ونوعية الجمل من حيث فعليتها واسميتها، ثم بنية الضمير.

بينما درست في الثاني نوعية الجمل من حيث إنشائيتها وخبريتها مع الوقوف عند الأساليب البيانية والمحسنات البديعية.

أما الفصل الرابع فقد خصصته لدراسة البنية الإيقاعية في الديوان، فعرفت، في البداية، الإيقاع وخصائصه، ثم عرجت على الوزن الشعري الذي درسته انطلاقا من الرؤية المقطعية، ثم وقفت عند القافية ودرستها بالنظر إلى نوعها وتكوينها المقطعي وصورتها المعجمية، وختمت هذا الفصل بدراسة حرف الروي من منظور لساني قائم على تحديد المخرج والصفة وعلاقة ذلك بالمعنى الشعري الصوفي لأصل إلى خاتمة الدراسة التي لخصت فيها أهم سمات التماثل والتمايز التي طبعت المتن الصوفي "العجيبي"، وختمت البحث بلائحة المصادر والمراجع العربية والأجنبية إضافة إلى الدواوين الشعرية والرسائل الجامعية والمنشورات والمجلات والجرائد...

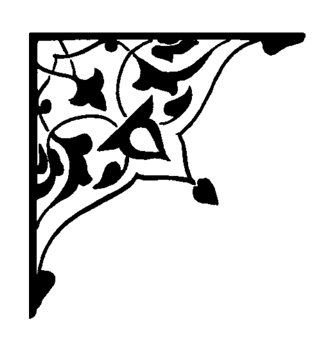
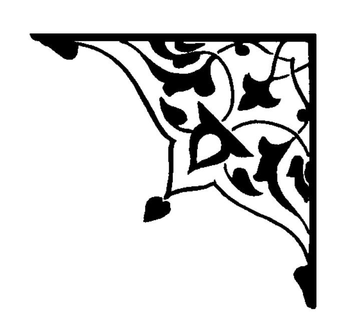
ولا يسعني، في هذا المقام، إلا أن أزجي خالص شكري وعظيم امتناني لأستاذي الدكتور الفاضل "أحمد العراقي" الذي أضحى من رواد البحث في الأدب المغربي، تشهد بذلك أعماله الوفيرة في هذا الحقل جمعا وتحقيقا ودراسة.

وكم كانت سعادتي فائقة حين تفضل وقبل الإشراف على هذا العمل، فوجهه وسدده حتى استوى على هذه الصورة.

كما أزجي خالص شكري لكل أساتذة وحدة الأدبية المغربية الذين تجشموا عبء تكويننا وتأطيرنا.

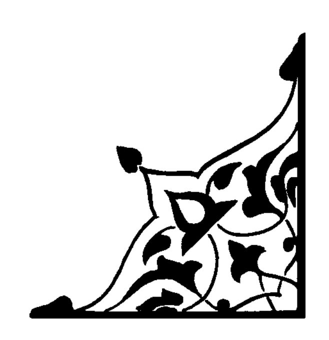
وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الدكتور نور الدين ناس الفقيه

الفصل الأول:

- أولا: لمحة موجزة عن الواقع الصوفي والأدبي بالمغرب إلى غاية القرن 13هـ/18م.
  - أ- الواقع الصوفي
  - ب- الواقع الأدبي
- ثانيا: الشاعر
- ثالثا: المتن المدروس

أولا: لمحة موجزة عن الواقع الصوفي والأدبي بالمغرب إلى غاية القرن13هـ/ 18م

أ- الواقع الصوفي:

شكل التصوف أحد أهم الاتجاهات التي ارتبطت بالأدب المغربي عبر تاريخه الممتد؛ وقد بدأ هذا الشكل الفكري الأدبي بسيطا مع دولة الأدارسة يمتح من الكتاب والسنة وعقيدة الأشعري ومذهب الجنيد. غير أن دخول كتاب "الإحياء" لأبي حامد الغزالي مع مطلع القرن السادس الهجري سيحدث رجة كبرى في المجتمع المغربي، إذ سيكون بمثابة الشرارة الأولى لاندلاع نار التصادم بين أهل الفقه والمتصوفة، بعد أن عرى ممارسات بعض الفقهاء الذين راموا قلب الحقائق الدينية وتكييفها تبعا لأهوائهم وخدمة لمصالحهم.

وهكذا، وبمبادرة من فقهاء الأندلس، تم إحراق كتاب "الإحياء" في العهد المرابطي[1].

أما الموحدون، فقد أعادوا الاعتبار لهذا الكتاب، وشجعوا التصوف والمتصوفة، واعتنوا بهم إيمانا بفكرهم واعتقادا، أو مواربة لهم ومسايرة، احتسابا لسلطتهم ودرءا لسخطهم[2].

ومن أهم أعلام التصوف في هذا العصر: "أبو يعزى يلنور بن ميمون"[3] توفي (572هـ) و"أبو الحسن بن حرزهم"[1]...

---

[1]- لمزيد من التفصيل حول حادثة إحراق "الإحياء" ينظر:

*بحوث في التصوف المغربي. د. حسن جلاب (ص 8-48) المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش ط1/ 1995.

* الدولة المرابطية: قضايا وظواهر أدبية. د. حسن جلاب (ص 241- 252) ط 1. مراكش 1997.

* لماذا أحرق كتاب الإحياء؟ عبد القادر العافية. مجلة دعوة الحق، عدد7، ص 175- 177، السنة 16/ 1974.

[2]- انظر: "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي. ج 2/ ص 250، تحقيق: محمد بن شريفة 1984.

[3]- هو الشيخ الصالح أبو علي يعزى بن الشيخ أبي يعزى كان في حياة أبيه يحب الرئاسة والدنيا، ثم تاب ليلة وفاة والده. انظر بعض الأخبار عنه في: "التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات، تحقيق: د. أحمد التوفيق. منشورات كلية الآداب

وقد اتخذ التصوف في العصر المريني شكلا مبتذلا بعد أن أسرف أهله في ممارسة البدع وادعاء الكرامات والولايات، مما أدى إلى نشوء تيار معارض حمل لواءه كل من "ابن عباد الرندي" (توفي 792هـ)[2]، و"محمد بن سليمان الجزولي"[3]و "أحمد زروق التازي"[4] توفي (899هـ) الذين نهلوا من الطريقة الشاذلية، وأسسوا، وفق مبادئها، أهم معالم نهجهم الصوفي.

وقد جمعت هذه الطريقة بين التصوف والفقه، مما جعل المغاربة يقبلون عليها، وهكذا وجدنا أغلب متصوفة المغرب فقهاء ومحدثين، إن في هذا العصر أو في العصور الموالية، حيث

والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984، ص 231و "أنس الفقير وعز الحقير:" لابن قنفذ، اعتنى بنشره وتحقيقه محمد الفاسي وادولف فور، ص 29، المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط 1965.

1- هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، من أهل فاس، توفي بها أواخر شعبان عام 559هـ، كان فقيها حافظا للفقه، زاهدا في الدنيا، سالكا في التصوف سبيل أهل الملامتية. وكان والده من كبار الصالحين. انظر بعض الأخبار عنه في "التشوف، م.س، ص 168و "أنس الفقير"، م.س،ص 12.

2- هو محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الحميري الرندي، متصوف باحث من أهل الأندلس. استقر خطيبا للقرويين بفاس. وتوفي بها. انظر ترجمته في : الأعلام قاموس تراجم لخير الدين الزركلي، ج5، ص299، دار العلم للملايين. بيروت. ط 4/ 1979. والمطرب بمشاهير أولياء المغرب،ص140، عبد الله التليدي،دار البشائر الإسلامية. ط4 /1424هـ/ 2003م.

3- محمد بن سليمان الجزولي (توفي 870هـ) من أكبر المتصوفين المغاربة من أتباع الشاذلي، له دلائل الخيرات وحزب الفلاح. انظر: الأعلام، م.س، ج 6/ 151. والمطرب،م. س،ص143.

4- أحمد زروق (توفي 899هـ) من أشهر المتصوفين المغاربة، عاش طويلا في المشرق. له القواعد في التصوف ومؤلفات أخرى. انظر سيرته في كتاب "أحمد زروق والزروقية" لعلي فهمي خشيم، ص 21- 131، ليبيا 1975.والمطرب،م.س،ص147. انظر كذلك دراسة عنه في: الشعر الصوفي بتازة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين من خلال شعر: إبراهيم التازي وابن يحيش التازي واحمد زروق. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب. إعداد: ربيعة بنويس. موسم 2003/2002. كلية الآداب جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس.

تحققت فيهم القاعدة المشهورة: "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"[1].

وقد أشار "ابن قنفذ" إلى جملة من الطرق الصوفية التي عرفها المغرب في القرن الثامن الهجري، معتبرا أن هذه الأرض "تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ"[2]. وقد انحرفت بعض الطرق إبان القرن التاسع عن النهج الصوفي المثالي، فعملت على الاغتناء وجمع الأموال، مما احدث ردة فعل طرق أخرى كالزروقية التي استمرت في خط الإصلاح، وتبعتها في ذلك الطريقة الجزولية التي عملت كذلك على تعبئة الناس ودعوتهم إلى الجهاد ضد الخطر الأجنبي المتربص بالمغرب...

ويتكرر المشهد نفسه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، حيث كثرت الطرق والزوايا ذات الفكر الباهت العقيم، بل والفارغ، إذ عملت مجموعة من أدعياء التصوف على تحقيق نزواتها المصلحية والشخصية، حيث كان الولي المخادع يتظاهر بالورع والزهد، ويبين كرهه للدنيا والملك، لكنه سرعان ما يغير موقفه" وها هنا مكيدة أيضا، وهي أن الفقير قد يبغض الملوك وأبناء الدنيا ويمقتهم... توهما انه أبغضهم لله...وهو كذاب، وإنما أبغضهم لاقتناصهم الدنيا عنه واختصاصهم بها دونه...ودليل ذلك منه أنه متى أكرمه الواحد منهم وأعطاه الدنيا أحبه وأثنى عليه"[3].

1- "القانون في أحكام العلم واحكام العالم وأحكام المتعلم" للحسن اليوسي. تحقيق وتعليق وتقديم: حميد حماني. مطبعة شالة. الرباط. ط 1، 1988، ص 198.

2- "أنس الفقير"، م.س، ص 63-64.

3- "رسائل أبي الحسن علي اليوسي"، ج2/357. جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل القبلي. دار الثقافة1981. البيضاء.

وقد انبرت الزاوية الدرقاوية[1]، التي يمثل "ابن عجيبة" أحد روادها، إلى التصدي لتلك الزوايا المضللة (خاصة العيساوية والحمدوشية). وقد حذر "سيدي أحمد" من أولئك الذين نعتهم بـ"متصوفة الوقت" وذلك في قوله:

يا قاصدا علم الطريق السالــف	لا تقتــدي بهــذه الطوائـــــف
ما منهم من علــــم المقصــودا	منـــــه ولا الـــوارد والمـــوردا
لم يعرفــوا حقيقــة الطريقــــة	فالقــــوم جهال على الحقيقـة
فاحذرهم خشية يفتنــــوكـــا	واتـــرك سبيلا لم يزل متروكـــا[2]

وقد تعرضت الدعوة الدرقاوية، بزعامة أحمد بن عجيبة، إلى جملة من المضايقات بسبب نهجها الإصلاحي الذي لم يرق أصحاب الرياسة وأرباب المصالح، فهدمت مراكزها وزواياها في تطوان، وطرد "سيدي أحمد" من طنجة وأحرق منزله... والأدهى من ذلك انه اتهم بالمروق عن الدين وبإحداث البدعة، فاعتقل واتباعه، وزج بهم في غياهب السجون، ونكل بهم أشد التنكيل[3].

[1]- تنتسب إلى الشيخ العربي الدرقاوي (1151هـ- 1239هـ/ 1745م- 1833م)، الذي اشتهر بدعوته الإصلاحية في وقت عرف فيه الفكر الصوفي المغربي بعض الانزلاقات بعد أن حاد عن أصول الطريقة الشاذلية. وقد اتبعت الدرقاوية نهج " خرق العوائد والتجرد" مع ابن عجيبة ثم نهج "الشكر والإبقاء على الأسباب" مع محمد الحراق. انظر: "المغرب عبر التاريخ (من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية)"، ص 564، إبراهيم حركات. دار الرشاد الحديثة. البيضاء.

[2]- " الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية" لأحمد بن عجيبة.ص290،خرج أحاديثه ووضع حواشيه الشيخ عبد الوارث محمد علي.ط1420.1هـ/2000م،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[3]- انظر :" محاكمة الدرقاوية" ضمن: " إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 و 19م، (أحمد بن عجيبة ومحمد الحراق). ج 1، ص 181- 233. ط2، دار الآفاق الجديدة، 1994/1415 للدكتور عبد المجيد الصغير.

ب- الواقع الأدبي:

شهد العصر العلوي الثاني[*] (1171هـ-1238هـ/1757م- 1823م) مشاركة واسعة للعلماء في العمل الأدبي دون تحرج، مع الالتزام بأصول الوقار، "ففي خارج الجلسات الفكرية والمطارحات الشعرية وبعض النزهات المختلسة من الأوقات العصيبة، لا يوجد متنفس لجماعة المثقفين عن أتعاب الحياة اليومية وقلق الظروف غير المستقرة"[1].

ينضاف إلى هذا إيلاء سلاطين الدولة العلوية، وبخاصة المولى سليمان، عناية قصوى للفكر عامة والأدب خاصة، ولعل هذا ما جعل أحد الباحثين يصف هذا السلطان بأنه كان "علامة قبل أن يكون ملكا"[2].

كما عرف هذا العصر إنتاجات أدبية وفيرة[3] تدل على تفتق قرائح الأدباء المغاربة وتوقد ملكاتهم...، ولئن ظل هذا الأدب، في غالب الأحيان، جيدا في أسلوبه، "فقد احتجزته الروح الدينية بشكل عميق، ولكنه كان عند الاقتضاء، ينفعل ويتأثر، فتلامس هذه الروح الدينية عواطف إنسانية رقيقة. وإذا ما قدر للأديب أن يتحرر في يوم ما من قيود الدين، فلا تلبث في فترة أخرى من حياته أن تطوقه وتشده إليه شدا"[4].

---

[*]- هوالعصر الذي عاش فيه شاعرنا.

[1]- التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنيين ونصف قبل الحماية. ضمن ملحق المغرب عبر التاريخ. ص 227. إبراهيم حركات. دار الرشاد الحديثة. البيضاء.

[2]- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص 360 وغيرها. ط 1. د. محمد الأخضر. دار الرشاد الحديثة. البيضاء.

[3]- نفسه، ص271- 272- 277- 280.

[4]- "التيارات السياسية"، مرجع سابق، ص 227.

وقد عرف هذا العصر انتشارا كبيرا لمختلف الأغراض الشعرية، حيث داخل الشعر المجال الاجتماعي والسياسي على نطاق لم يسبق له مثيل في تاريخ المغرب، "ذلك أن عددا كبيرا من شعراء الفصيح وضعوا أنفسهم إلى جانب الزجالين الشعبيين في خدمة الملحون والزجل، فاغتنى الشعر بثروة كبيرة من القصائد والأشعار، ووضعت عشرات الدواوين على يد أصحابها من الشعراء أو من تلاميذهم وأسرهم أو المتعاطفين مع إنتاجهم الذي طرق كل أبواب الحياة، وساده الجد دون أن يخلو بعضه من مجون، ودون أن يسوده التزمت المفرط الذي طبع شعر بعض العصور الماضية بهذا القطر"[1].

وقد ظل الشعر الصوفي من أهم الموضوعات التي خاض فيها جملة من شعراء هذا العصر، حيث اصطبغ بصبغة الاعتدال والالتزام بالروح السنية، واتجه إلى التعلق بالذات الإلهية والفناء فيها، واكتسب قيمة كبرى "بفضل ما أنبت في حقله من نصوص وقصائد ومنظومات، منها ما نحت مكانته ضمن الإنتاج الأدبي الفني الجيد، وما تأخرت قيمته الأدبية لصالح قيمته النفعية العلمية والمعرفية الصوفية... وغيرها، والكل ذو قيمة جلية في المقاربات الأدبية والعلمية..."[2].

[1]- "التيارات السياسية، مرجع سابق، ص 234.

[2]- الأدب الصوفي في المغرب إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، ظواهر وقضايا. ص 23.
أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها. إعداد: عبد الوهاب الفيلالي بإشراف الدكتور أحمد العراقي. موسم 2000- 2001. جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب ظهر المهراز. فاس. وينظر كذلك في موضوع اصطباغ الأدب بالصبغة الصوفية خلال هذه الفترة: " مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي" لحسن جلاب، ص 34-35، مراكش. ط 1/ 1994.

وقد تقولب الشعر الصوفي، في هذه الفترة، ضمن مجموعة من الأنماط "بدءا من أدب الحب التوسلي، ومرورا بأدب الحب الشوقي وما يشمله من معاني وأحوال، ووصولا إلى أدب الحب الاستغراقي، حيث الكشف والمشاهدة، وانتهاء إلى أدب التوجيه والإصلاح..."[1].

ونشير إلى أن شعراء التصوف المغاربة، في العصر المدروس (ومنهم ابن عجيبة) احتذوا حذو "ابن الفارض" وساروا على نهجه، ورددوا كثيرا من معانيه وأساليبه وعارضوا بعض قصائده، وضمنوا منها أشعارهم، فكانت البصمة "الفارضية" واضحة في شعرهم، لكن دون أن يعني هذا عدم تميزهم أو غياب شخصيتهم الإبداعية، ولعل ما سيأتي من هذا البحث في دراسة أشعار "ابن عجيبة" كفيل برسم الصورة الحقيقية للشعر الصوفي المغربي خلال هذه الفترة.

[1]- الأدب الصوفي في المغرب إبان القرنين 18 و19، م.س، ص 27.

ثانيا: الشاعر (1160هـ- 1224هـ/ 1747م- 1809م)

يقول "أحمد بن عجيبة" معرفا بنفسه وأسلافه: "فأما سلفنا، فأنا عبد الله أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد بن عجيبة الحجوجي (بن سيدي عبد الله بن عجيبة المستقر بالخميس، ثم إلى سيدي سحنون ابن مولاي إبراهيم بن مولاي محمد بن مولاي موسى بن مولاي عبد الله ثم إلى مولاي أحمد بن مولاي إدريس الأصغر بن مولاي إدريس الأكبر، رضي الله عنهم أجمعين، هكذا رأيت بخط جدي الحسين المذكور، اعني الجمع بين النسبتين: ابن عجيبة والحجوجي")[1].

وقد ولد أحمد بن عجيبة سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف هجرية، "وهو زمن نزول المستضيء على تطوان الذي كان حصاره لها أواسط سنة 1160هـ، وكانت ولادته في مدشر "اعجيبش"* من قبيلة الحوز** التي تقع تطوان في أحد سفوح جبالها"[2].

---

[1]– "الفهرسة" لأحمد بن عجيبة،ص16، ط1، 1990، تحقيق وتقديم وتعليق: الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، دار الغد العربي، القاهرة. وينظر كذلك:

L'autobiographie (FAHRASA) du saufi marocain AHMAD Ibn'Agiba. Jean – louis Michon, Leiden 1969.

*– مدشر أعجيش .: به ضريح الشيخ عبد الله بن عجيبة الذي هاجر إليه من سبتة سنة 807هـ، وهو جد جميع أولاد بن عجيبة.

** الحوز: إحدى القبائل الجبلية الواقعة بين تطوان وسبتة.

[2]– شرح تائية البوزيدي في الخمرة الأزلية لأبي العباس أحمد بن عجيبة. ترجمة: الثابت بنسليمان عبد الباري، ص 5، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1418هـ/ 1998م..

وقد قسم أحد الباحثين حياة "ابن عجيبة" إلى ثلاث مراحل فكرية- أخلاقية هي:

أ- مرحلة الطفولة أو التربية الحسية (1160- 1178هـ/ 1747- 1765م).

ب- مرحلة الشباب وطلب العلم (1178- 1208هـ/ 1765- 1794م).

ج- مرحلة الولاية ومقام الإحسان (1208- 1224هـ/ 1794- 1809م)[1].

وقد بدأ "سيدي أحمد" مسيرته العلمية بحفظ القرآن الكريم، ثم تنقل لتعلم التجويد لدى جملة من مشايخ القراءة، فالتقى بالفقيه "محمد السملالي" الذي صحبه معه إلى القصر الكبير حيث لازم "ابن عجيبة" مجالسه العلمية "وكانت سبعا في اليوم والليلة مدة عامين، درس خلالها مقدمة الأجرومية، والألفية، والمرشد المعين، وقرأ المنظومة القرطبية، ونظم الخراز، وجزءا من حرز الأماني وغيرها"[2]. ثم انتقل بعد ذلك إلى تطوان حيث حصل علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد والمنطق. كما تتلمذ على شيخه "محمد بن الحسن الجنوي" تلميذ الشيخ" أحمد الورزازي"، ثم انتقل إلى فاس للتعمق في علوم الشريعة، وبعد فترة عانقت نفسه العلم الآخر الأجل: علم الحقيقة.

وقد عرفت الحياة العلمية لابن عجيبة تحولا عميقا، إذ انتقل من "العلم" إلى "العمل" بعد مطالعته كتاب "الحكم العطائية" للشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري". وفي ذلك يقول: "وسبب انتقالنا من العلم إلى العمل أني وجدت نسخة من الحكم لابن عطاء الله

1- د. عبد المجيد الصغير: " إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنيين 18 و19 (احمد بن عجيبة ومحمد الحراق)، الجزء الأول، ص 96، دار الآفاق الجديدة- المغرب.

2- شرح تائية البوزيدي، م.س، ص 6.

فنسختها، ثم طالعت شرح ابن عباد، فلما طالعته زهدت في العلم الظاهر، وانتقلت إلى العبادة والتبتل"[1].

ومات الشيخ "أحمد بن عجيبة" بالطاعون في دار شيخه بـ "غمارة" في السابع من شوال عام 1224هـ، " وما يزال ضريحه، الذي يشرف على ربوة "زميج" على بعد عشرين كيلومترا من طنجة، يزار للتبرك والدعاء عنده، وتحتفل الطريقة الدرقاوية بموسمه في الرابع عشر من شتنبر من كل عام"[2].

شيوخه:

لا يمكن حصر شيوخ "ابن عجيبة"، ولكن يمكن أن نشير إلى اسمين كبيرين بصما حياته الروحية وهما:

- أبو العباس أحمد الورزازي (أو الورزيزي) المتوفى عام 1179هـ/ 1765م، وهو من أكبر علماء تطوان في القرن الثاني عشر، كان يجمع بين النزعة العقلية والروح الصوفية والرغبة في الإصلاح الاجتماعي.

- والشيخ "محمد بن الحسين الجنوي"المتوفى بمراكش سنة 1200هـ/ 1785م، من تلامذة الشيخ الورزازي، وربما كان الوحيد الذي يلقن بعض كتب التصوف "كالحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري و "النصيحة الكافية" و "أصول الطريقة" للشيخ زروق.

أما شيوخه بفاس فيمكن أن نذكر منهم: التاودي بن سودة ومحمد بنيس، واحمد الزعري والطيب بن كيران...[3].

---

[1]- أحمد بن عجيبة: "الفهرسة"، مرجع سابق، ص 40.

[2]- محمد داود، "تاريخ تطوان"، مطبعة المهدية (تطوان)، ج1966/6، ص 217- 218..

[3]- انظر "تاريخ تطوان"، ج 6، ص 218.

مؤلفاته:

بلغت مؤلفات "أحمد بن عجيبة" اثنتين وأربعين ما بين كتب ومقالات، منها ما ألف قبل مرحلة التصوف وعدها ست عشرة مثل:

"تأليف في النيات"، "اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية"، "الأنوار السنية في شرح القصيدة الهمزية"، "شرح المنفرجة لابن النحوي"، شرح البردة للبوصيري"...إلخ.

ومنها ما ألف بعد تصوفه، وعددها ست وعشرون، مثل:

"إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، "الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية"، "شرح قصيدة خمرية لابن الفارض"، "نعوت الخمرة الأزلية في حال التجلي وبعده"، "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"، "كشف النقاب عن سر لب الألباب"، " الفهرسة"، "ديوان قصائد وتوشيحات"...إلخ[1].

وقد ضمن "ابن عجيبة" فهرسه كثيرا من أشعاره، ولا ندري هل هي كل الديوان أم أنها جزء منه، وقد قدر مترجم الفهرس عدد أبيات ديوانه وموشحاته بنحو مائتين (200)، ولكن الأبيات الواردة في الفهرس تناهز الأربعمائة (400) علاوة على الأزجال...

[1]- انظر "إشكالية إصلاح الفكر الصوفي"،م.س ، ص 165 إلى 179.

مصادر ترجمته:

- فهرسة أحمد بن عجيبة، تح: عبد الحميد حمدان. ط1/ 1990، دار الغد العربي، القاهرة.
- فهرس الفهارس: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، ج2، ص 854- 855، دار الغرب الإسلامي، ط 1982/2.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج2. مطبعة الترقي بدمشق 1957م.
- معجم المطبوعات العربية والمعربة، إلياس سركيس، ص 169- 170، مطبعة سركيس، مصر 1928.
- التصور والتصديق: ص 18- 22، أحمد بن الصديق، مطبعة السعادة، مصر 1366هـ.
- المطرب بمشاهير أولياء المغرب.ص290.عبد الله التليدي، ط 4، 1424هـ/ 2003م. دار البشائر الإسلامية..
- تاريخ تطوان: محمد داود، ج6، ص 217- 218، المطبعة المهدية، تطوان 1966.
- فهرسة عبد القادر الكوهن، ص 161- 164.
- مجلة دعوة الحق، ع 239، ص85، سنة 184.
- جريدة الميثاق، ع 204- 206- 207، سنة 1975

ثالثا: الديوان المدروس:

هو الديوان المثبت ضمن كتاب "الفهرسة"[1] الذي حققه الدكتور "عبد الحميد صالح حمدان"وقدمه وعلق عليه أيضا، وذلك بعد قراءته للترجمة الفرنسية للفهرسة، والتي قام بها المستشرق الفرنسي الدكتور (جان لوي ميشون J.L.Michon)[2]، وقد شملت هذه الفهرسة كل تفاصيل حياة "أحمد بن عجيبة" منذ مولده حتى سنة 1222هـ،أي قبل وفاته بعامين، حيث ضمنها سيرته العائلية والشخصية ومسيرته العلمية، وانخراطه في عالم التصوف...وهذه الفهرسة، فضلا عن تقنينها لبعض قواعد التصوف وذكرها للشروط التي ينبغي للمريد اتباعها، تبقى تحفة أدبية وفنية سامية، تستدعي دراستها أيضا من الزاوية الأدبية واللغوية والفنية، وهو ما سأحاول رصده في هذه الدراسة.

وقد ورد في "الفهرسة" حوالي أربعمائة (400) بيت، موزعة على قصائد مختلفة تراوحت ما بين مطولات (كقصيدة تائية في الخمرة الأزلية بـ 87 بيتا) ومقطوعات أو نتف شعرية (كمقطوعة في أركان الولاية وموادها بـ 5 أبيات، ونتفة في تذييل قول للحلاج (بيتان)... إلخ[3].

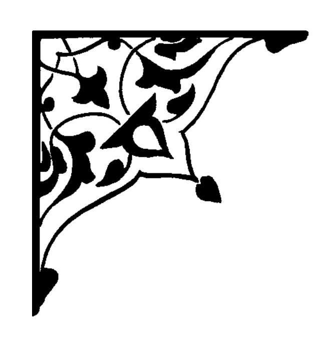
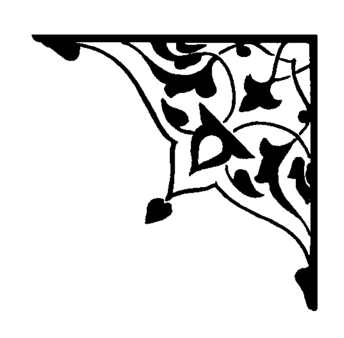
---

[1]- صدرت هذه الفهرسة منذ زمن في ترجمة فرنسية لها بفضل المستشرق الفرنسي الدكتور (جان لوي ميشون) الذي سهر على ترجمتها ترجمة رصينة وأمنية ... وبعد قراءة هذه الترجمة، ارتأى الدكتور "صالح حمدان" أن تنشر وألا يحرم العالم العربي من هذا المؤلف الهام، فقام بتحقيقها والتعليق عليها، معتمدا على مخطوطتين: الأولى مخطوطة تطوان، وهي معروفة بدقتها وبخطها المغربي الواضح (وهي التي اتخذها أساسا للنشر)، والثانية مخطوطة الرباط المحفوظة في المكتبة العامة تحت رقم د 1845، والتي كملت الأولى عند الاقتضاء.

وكان ختم هذه الفهرسة، حسب ما جاء في مخطوطة تطوان: " بعد ظهر تاسع ربيع النبوي، عام ثان وعشرين ومائتين وألف (1222هـ)، كما كانت كتابتها على يد كاتبه لمؤلفه: " عبد الغفور بن التهامي البناي".

[2]- L'autobiographie, op.cit.

[3]- انظر قسم المنظوم في الفهرسة من ص 102 إلى ص 125.

الفصل الثاني:

البنية المعجمية في شعر أحمد بن عجيبة ومضامينها

أولا: تعريف الحقول المعجمية

ثانيا: مضامين الشعر الصوفي عند أحمد بن عجيبة

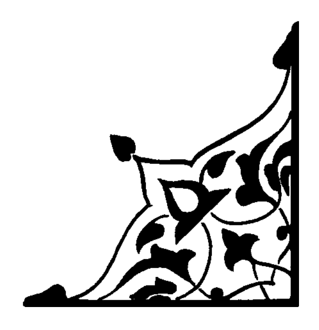
أ- الحب الإلاهي (التلويحات الخمرية)

ب - الحقيقة المحمدية

ج – التوسل

د- مدح سالكي الطريق وبيان شروطهم

هـ- الزهد

أولا: تعريف الحقول المعجمية وتحديدها:

في أحدث دراسة تحاول فهم كيفية اشتغال المفردات وتوظيفها من المتكلم العادي من جهة، والمتكلم الشاعر، من جهة ثانية، ترى "جاكلين بيكوش" (J.Picoche) أن " المقصود بالمعجم (Lexique) هو مجموع الكلمات/ المفردات التي تضعها لغة ما رهن إشارة المتكلمين بتلك اللغة قصد التعبير عن أغراضهم، أما المفردات (Vocabulaire) فتعني بها مجموع الكلمات التي يستعملها متكلم معين داخل أحوال معينة"[1].

ولا تخرج الدراسة المعجمية عن إطار وصف المفردات التي تشكل حقيقة صغرى ترتبط بحقيقة لغوية كبرى (هي المعجم)، فالمفردات إذا، هي الجسر المؤدية إلى فهم معجم المبدع/ الشاعر.

[1]- Picoche (Jacqueline) : « précis de lexicologie française »p .16, édition : NATHAN, Recherche, Paris, 1986.

- كما يعرف "جورج مونان" (G. Mounin) المعجم بأنه مجموع الوحدات الدالة للغة معطاة في زمن معطى من تاريخها... وهو عبارة عن لائحة غير محددة من الوحدات المعجمية" انظر:

« George Mounin » : Dictionnaire de la linguistique, pp : 203- 204, quadrige/ presse universitaire de France, Mars 1993 N° 39 136.

- ترجمة: نور الدين ناس الفقيه ضمن: " مخصص ألفاظ الرثاء عند أبي ذؤيب الهذلي "دراسة معجمية ودلالية، بحث لنيل الإجازة في اللغة العربية بإشراف الدكتور حسن احساين، جامعة محمد الأول، وجدة موسم 1995- 1996، ص 6. وينظر كذلك:

Le champ conceptuel de la beauté en Français moderne. p14, Dukhacek, praha1960 .statni pedagogique Naklada, telstini.

إن المعجم، كما يعتبره "محمد مفتاح" هو المرشد إلى تحديد هوية النص وهو لحمة أي نص كان، ويحتل مكانا مركزيا في أي خطاب، ولذلك اهتمت به الدراسات اللغوية قديما وحديثا، وجعلته مركز الدراسات التركيبية والدلالية[1].

وانطلاقا من هذا الفهم البسيط الواضح للمعجم، باعتباره استخداما معينا لمفردات اللغة، وبعد وقوفنا على المعجم الشعري لأحمد بن عجيبة، من خلال ديوانه، أمكننا تحديد حقل شاسع عريض مهيمن، تصب قنواته في بحر التصوف وما يرتبط به من معاني الوجد والجوى والمناجاة والتقرب إلى الله عز وجل، وهذا الحقل الشاسع (التصوف) يحوي حقولا صغرى يمكن تصنيفها كالآتي:

* **حقل الخمرة**: وتدل عليه كلمات مثل: مدامة، خمر،سقاني،كؤوس الخمر، صحا، سكر، الصهباء، الحان، الراح، سكرنا، المدام، سكران...

* **حقل التوحيد**: الله، الرحمان، الإله، قدوس، سميع، الذكر، الشريعة، جبريل، القرآن، التقديس، الشرع...

* **حقل الفضائل**: زهادته، الإيثار،بذل،التواضع،همة،صبر،الجود،الإحسان...

* **حقل الحب والهوى**: حبي، حبه،الهوى،الحبيب،لوعة، أحبتي، الأحباب، أهيم وجدا، أفنى عشقا...

* **حقل النبوة**: محمد، أحمد، الشفيع، النبي، رسول الله...

* **حقل الأولياء**: ولي الله، رجال الله، شيخ، القطب، سالك، عارف بالله...

* **حقل الطبيعة**: البحر، رياض، بساتين، الكونين، شمس، أرض، النجم، ضوء، ليل، غبش، قمر...

---

[1] – محمد مفتاح "تحليل الخطاب الشعري" ص 58 ن دار التنوير – لبنان، ط1، 1985.

* **حقل الضلال والزيغ**: إلحاد، زيغ، الجهل، البعد، الباطل، الوهم، يضل...

تلك، إذا، هي أهم الحقول المعجمية التي يزخر بها المتن المدروس، حقول تصب كلها في بحر التصوف وما يمت إليه من المواجد والأحوال التي تقذفها رحم المجاهدات.

وإذا أردنا أن نربط هذه الحقول بمفاهيمها العامة وما تحيل عليه، أمكننا تحديد خمسة مضامين رئيسة شكلت ديدن اغلب شعراء التصوف في المشرق والمغرب معا، وترددت في ديوان "سيدي أحمد" بشكل متميز، وهذه المضامين هي محور دراستنا في النقطة الموالية.

ثانيا: مضامين الشعر الصوفي عند احمد بن عجيبة

أ- الحب الإلهي (أو التلويحات الخمرية)

ارتبط الحب الإلهي في التجربة الصوفية بالخمرة والسكر ومتعلقاتها، وتجد الخمرة أصولها في الشعر العربي منذ فترة الجاهلية، حيث تغنى بها الشعراء وتفاخروا بالتهالك على احتسائها، وذلك بالنظر إلى أن الخمرة وسيلة من وسائل الهروب من الواقع المرير، ونشدان الراحة المفقودة، بالرغم من أن القبيلة "ظلت ترفض الخمر، وتعنف شاربها إلى حد التنصل منه، وذلك لما يرتبط بالخمر من فساد وبطالة ومجون لم تكن لتقر عليه أحدا"[1].

ورغم بزوغ فجر الإسلام، ظل التغني بالخمرة قائما، بل لقد تجاهر بها عدد من الشعراء، وأسسوا تيارات استقطبت عددا من الأتباع والمريدين كما هو الشأن عند مسلم بن الوليد وأبي نواس... فأسهب الشعراء في وصف الخمرة ولونها وصفائها وعدم مزجها بغيرها، مثل ما نجد عند أبي نواس في قوله:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها	لو مسها حجر مستــه ســـراء
قامت بإبريقها والليـــل معتكـر	فلاح من وجهها في البيت لألاء[2]

دون إغفال الإشارة إلى الحان والندمان، وما يرتبط بها (الخمرة) من مجالس اللهو والمجون...

---

[1]- محمد يعيش: "شعرية الخطاب الصوفي"، ص 162، (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس- فاس، سلسلة رسائل وأطروحات" رقم 1 سنة 2002.

[2]- إيليا حاوي: "فن الشعر الخمري وتطوره في الأدب العربي"، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط، 1، 1960.

أما إذا انتقلنا إلى التجربة الصوفية، فسنجدها تتوسل بالخمرة وتقيم لها شأنا عظيما وتبالغ في التغني بها وتغبط شاربها... ولكن، أليست الخمرة من الخبائث التي شدد الإسلام على تحريمها؟ ! وكيف يمدحها المتصوفة وهم أهل الإيمان ونموذج الصفاء الروحي؟ ! بل كيف تسول لهم أنفسهم مجرد التفكير في احتسائها؟ ! تلك أسئلة قد تربك الجاهل بحقيقة هذه الخمرة وحقيقة الرؤية الصوفية إليها.

ولدرء هذا التعارض الظاهري، تكفي الإشارة إلى أن الخمرة في عرف الصوفية، ليست هي الخمرة الحسية المعروفة، وإنما هي الحب الإلهي في أبهى صوره وأزكى تجلياته، "وقد أعطى الصوفية هذا المعجم الخمري دلالات جديدة خرجت بالخمر إلى دائرة الرمز الصوفي، والصوفية يستخدمون نفس الألفاظ التي نجدها في شعر الخمر الحسية كالندمان والحواني والدنان، وإلا أنهم يشيرون بهذه الألفاظ إلى معاني الحب والفناء والاتحاد"[1].

وقد تفنن شاعرنا "أحمد بن عجيبة" في تناول هذه المعاني، إذ يقول في قصيدته العينية: (الطويل).

سقانـــي حبي من مدامـــة حبــــه	فأصبحت من خمر الهوى أتضلــع
فلما سقانــــي زاد منــــه تعطشـي	فكان فؤادي بالجــوى يتقطـــــع
فلو أن الكــــون عرشه مـــع فرشه	كؤوس لخمر الحـــب ما أنا قانـع
ولو عشت في الكونين نسقى من الهوى	على عدد الأنفـــاس ما أنا شابع
صحا الناس من سكر الحبيب وأفرقوا	وإني على الصهباء في الخان جامع

[1]– د. عاطف جودت نصر: "شعر عمر بن الفارض"، دراسة في فن الشعر الصوفي"، ط1، دار الأندلس، 1986، ص 131.

ولي لوعــة بالـــراح إذ فيه راحتـــي	وروحي وريحاني وخيـــره واســـع
سكرنـــا فهمنـــا في بهاء جمالـه	وغبنا عن الإحساس والنور ساطع[1]

إن "ابن عجيبة" يتحدث هنا عن المدامة والخان والصهباء والخمر والراح والسكر والغياب... وهي كلها من لوازم الخمر ومتعلقاتها وأوصافها. وهي، كما أسلفنا، رمز للمحبة والتعلق بالله عز وجل، محبة تضرب بجذورها في الأزل، مجردة عن حدود الزمان والمكان "وهي التي بواسطتها ظهرت الأشياء وتجلت الحقائق وأشرقت الكائنات، وهي الخمر المعتقة في أعطاف الأزل، شربتها الأرواح المجردة فانتشت وطربت وسكرت قبل أن يخلق العالم"[2].

إن هذه الخمرة قديمة قدم الأزل، ليس لها مثيل، تجلت أنوارها على الأكوان وأحاطت بها عزا وجبروتا: (طويل).

سكرنا بها قدما وبعد نشأتـــي	وفي النشأة الأخرى تدوم مسرتي
فلا قبلها شيء ولا بعدها كون	وليس لها مثل في حكم الحقيقـة
أحاطت بكل كون عزا وقـدرة	وعلما وسمعـا في حيـاة وقـوة
تقادم عصرها لقدم حديثهـا	عل كـل كون بالرسـوم تجلت[3]

وفي الأبيات السابقة "لأحمد بن عجيبة" نجد أثر "التائية الكبرى" لابن الفارض، أو ما تعرف بنظم السلوك، واضحا جليا يقول "سلطان العاشقين" (طويل):

---

[1]– الفهرسة: ديوان أحمد بن عجيبة، ص 102-103،م.س.

[2]– د. عاطف جودت نصر: "شعر عمر بن الفارض"، مرجع سابق، ص 137.

[3]– الفهرسة،م.س، ص 104.

سقتني حميا الحب راحـة مقلتـي وكأسي محيا من عن الحسن جلـت
فأوهمت صحبي أن شـرب شرابهـم به سر سري في انتشائـي بنظـرة
وبالحدق استغنيت عن قدحي، ومـن شمائلها، لا من شمولـي، نشـوتي
ففي حان سكري، حان شكري لفتية بهم تم لي كتم الهوى مع شهـرتي
ولما انقضى صحوي تقاضيت وصلها ولم يغشني، في بسطها، قبض خشيتي[1]

كما نجد كذلك أثر الميمية لابن الفارض والتي مطلعها: (طويل)

شربنا علـى ذكر الحبيـب مدامـة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكـرم[2]

وقد فسرها "ابن عجيبة" بقوله: "المدامة والمدام: اسم للخمر، لأن العرب كانت تحب دوامها عندهم، فسموها به تفاؤلا. والكرم: شجر العنب، والعنب نفسه. يقول* رضي الله عنه: شربنا على إثر ذكر الحبيب بالقلوب والأرواح خمرة صافية في مقام الصفا، سكرنا بها فغبنا عن الإحساس، ورأينا أنوار الحبيب في كل شيء، ومع كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء، فغيبنا السكر عن ظلمة الأكوان الحادثة، وأبصرنا أنوار القدم الباقية، وقد أشرت إلى هذا المعنى في عينيتي فقلت: (طويل)

سكرنا فهمنـا في بهـاء جمالـه وغبنا عن الإحساس والنور ساطـع
تبدت لنا شمـس النهار وأشرقـت فلم يبق ضوء النجم والشمس طالع[3]

[1]- ديوان ابن الفارض، ص 46، دار صادر، بيروت 1448هـ/ 1998م.

[2]- ديوان ابن الفارض، مرجع سابق، ص 140.

*- أي ابن الفارض.

[3]- " أحمد بن عجيبة": "شرح خمرية ابن الفارض"، ضمن كتاب "شرح صلاة القطب بن مشيش" سلسلات نورانية فريدة، جمع وتقديم العمراني الخالدي عبد السلام، دار الحديثة، الدار البيضاء، ص 108- 109، وانظر الأبيات الشعرية في الفهرسة، ص 103.

إن توسل "ابن عجيبة"، شأنه شأن شعراء الصوفية، بالرمز الخمري راجع إلى قصور اللغة عن تصوير حالة الوجد والجوى التي يتلظى بلهيبها المتصوف، وعجزها (اللغة) عن بيان كنه المحبة الإلهية والنفاذ إلى بواطنها... فهذه الخمرة شديدة الارتباط بالذات الإلهية، ولعل هذا ما جعل "ابن عجيبة" يعرفها قائلا: " أما الخمرة فقد يطلقونها على الذات العلية قبل التجلي، وعلى الأسرار القائمة بالأشياء بعد التجلي، فيقولون: الخمرة الأزلية تجلت بكذا، ومن نعتها كذا، وقامت بها الأشياء، تسترا على سر الربوبية، وعليها غنى ابن الفارض في خمريته. وإنما سموها خمرية لأنها إذا تجلت للقلوب غابت عن حسها كما تغيب بالخمرة الحسية. وقد يطلقونها على نفس السكر والوجد والوجدان، ويقولون: كنا في خمرة عظيمة، أي في غيبة عن الإحساس كبيرة، وعلى ذا غنى " الشُشتري"[1] حيث قال:

خمرهـــا دون خمـــــري ... خـــمـــرتـــــي أزليـــــــة

أي سكر خمرة الدوالي دون خمرتي..."[2].

ويرى شاعرنا أن الخمرة الأزلية قبل أن تجلى في الأواني[*] كانت "لطيفة المباني، نورانية شعشعانية، روحانية بلا جسمانية، أولية بلا بداية، آخرية بلا نهاية، ليس لها حصر ولا غاية، لا يمكن لأجل لطافتها أن تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العلوم والأفكار..."[1].

[1]- هو علي بن عبد الله النميري الششتري اللوشي، ويكنى بأبي عبد الله، ولد على الأرجح سنة 610هـ وتوفي سنة 668هـ؛ أول أساتذته في التربية هو محيي الدين بن سراقة الشاطبي (ت 622هـ) من أصحاب السهروردي، ثم حضر حلقات أصحاب أبي مدين. وصلت دراسته إلى أوجها على يد أستاذه ابن سبعين... انظر ترجمته في : "نفح الطيب للمقري، ج 2/ص 185-186- 187.والمطرب،م.س،للتليدي،ص127.

[2]- "معراج التشوف إلى حقائق التصوف" لأحمد بن عجيبة، ص 98، ضمن كتاب "شرح صلاة القطب بن مشيش، م.س.

[*]- الأواني في عرف الصوفية تحيل على المخلوقات (أو التجليات).

وإذا كان "ابن عجيبة"، كغيره من شعراء التصوف، قد انطلق قي تصوره للحب الإلهي، من مجموعة من آي الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى:﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[2]، وقوله عز من قائل: ﴿ **يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله**﴾[3] فإن الذي أوخذ عليه، ومعه جمهور الصوفية، هو استعمال بعض الألفاظ التي لا تصح في حقه تعالى كالعشق والعاشق والمعشوق، علاوة، كما رأينا من قبل، على التوسل بالمعجم الخمري، إذ عمدوا إلى تشبيه الذات الإلهية بالخمر المسكوبة في الدنان...

ويرتبط بالخمرة، في العرف الصوفي، عدد من المصطلحات كالسكر والصحو والذوق والشرب والمدامة والكرم والبدر والشمس والهلال والنجم والإدارة والمزج والندمان والحان...

*** الصحو والسكر:**[4]

يقول "سيدي أحمد": (طويل)

صحا الناس من سكر الحبيب وأفرقوا   وإني على الصهباء في الخان جامع

سكرنـــا فهمنـــا في بهاء جمــــالـــه   فغبنا عن الإحساس والنور ساطع[5]

[1]–Ibn'Ajiba : deux traités sur l'unité de l'existence texte arabe établi, traduit et présenté par : Jean – louis Michon préface de claude ADDAS, p : 28 collection HIKMA bilingue ALQuobba ZARQUA, 1er édition MARRAKECH. 1998.(ترجمة: جعفر الكنسوسي)

[2]– سورة آل عمران، الآية: 31.

[3]– سورة البقرة، الآية: 165.

[4]– يعرف "القشيري" الصحو والسكر ويبين الفرق بينهما في قوله: " (الصحو) رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة، والسكر غيبة بوارد قوي؛ والسكر زيادة على الغيبة من وجه، وذلك أن صاحب السكر قد يكون مبسوطا إذا لم يكن مستوفيا في سكره، وقد يسقط إخطار الأشياء على قلبه في حال سكره، وتلك حال المتساكر الذي لم يستوفه الوارد، فيكون للإحساس فيه مساغ، وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة، فربما يكون صاحب السكر أشد غيبة من صاحب الغيبة إذا قوي سكره، وربما يكون صاحب الغيبة أتم في الغيبة من صاحب السكر إذا كان متساكرا غير مستوف"، الرسالة القشيرية، ص 71، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت 1424هـ/ 2003م.

[5]– الفهرسة، م.س، ص 103.

ويقول كذلك: (طويل)

ففي سكـــرة منها سرور وغبطــة   وخيـــر حياة في نعيـــم ومهجة[1]

إن "ابن عجيبة" يهيم عشقا بمحبوبه إلى درجة دخوله عالم السكر الذي يتيح له مشاهدة الحال والتنعم به، فالسكر وسيلة لمطالعة الجمال، يحجب نور العقل، سواء أكان ناشئا عن الخمر الحسية أم الخمر الروحية، إلا أن الفرق بينهما يكمن في أنه، في الخمر الحسية، يستتر النور العقلي بالظلمة، وفي الخمر الروحية يستتر النور العقلي بنور أسطع هو نور الجمال الإلهي"[2].

* **المدامة:**[3]

يقول "سيدي أحمد": (طويل)

فلا صبر عن شرب المدام إذا صفا   فإن مزجت فالشرب أبلغ منيتي[4]

ويقول كذلك: (زجل)

أنـــا فإنـــي في ذي الجـــلال   سبحـــانـــــه سبحـــــان

يا مـــن يـــرد سكـــرا مدام   نبـــــع لــــه بثمـــــــــان[5]

---

[1]- نفسه، ص 104.

[2]-محمد يعيش: شعرية الخطاب الصوفي، مرجع سابق، ص 204.

[3]- انظر شرح المدامة لابن عجيبة في ص .12 وما بعدها من هذا البحث.

[4]- الفهرسة، م.س، ص 104.

[5]- نفسه، ص 113.

إن "المدام" عند "ابن عجيبة" هو المحبة الإلهية التي هي قوام العالم وسر الوجود، ومجرد ذكر اسمها يبعث في النفس السكينة والأمان، ويشتت دياجير الهموم والأحزان، ويسكر الندامى بعبقها، ويحيي الموتى بنسيمها (طويل)

فيا لها من نشوى لو هب نسيمها ... على قبور الأموات أحيت بسرعة
ولو عبقت أنفاس طيبها في الورى ... لأضحوا سكارى بالجميع في لحظة
ولو بيعت الأرواح في قرب خانها ... لكان لها بيعا رخيصا بصفقة[1]

ولعل هذا عين ما عبر عنه "ابن الفارض" في ميميته: (طويل)

ولو نظر الندمان ختم إنائها ... لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت ... لعادت إليه الروح وانتعش الجسم[2]

ولذلك يطلب "ابن عجيبة" من المريد أن يهيم بحب الحبيب وألا يرضى بالنظر في غيره حتى يقطع دابر الوهم والضلال: (طويل)

فهم وتنزه في كمال جمالها ... ولا ترض في غير الحبيب بنظرة
وجز بسيف العزم سوف وكل ما ... يحوم بحول الوهم قطعا بسرعة[3]

* **الشمس:**

يجعل "سيدي أحمد" الخمر الإلهية شمسا مشرقة، والنجم نورا متلألئا هاديا، يحتجب إجلالا لسطوع الشمس وعرفانا بجبروتها: (طويل)

تبدت لنا شمس النهار وأشرقت ... فلم يبق ضوء النجم والشمس طالع[4]

---

[1]- الفهرسة، م.س، ص 106.
[2]- ديوان ابن الفارض، م.س، ص 140.
[3]- الفهرسة، م.س، ص 106.
[4]- نفسه، ص103.

إن هذه الخمرة تشبه الشمس من حيث إشراق أنوارها على كل ما اكتنفه الظلام لمدة من الزمن، فهي تحيي القلوب الغلف والآذان الصم والعيون العمي، وهي كالمشكاة التي يهتدي بسناها السالكون، وهي التي شبه الله تعالى بها نوره المتلألئ في قوله: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم﴾[1].

*** الصرافة والمزج:**

يقول "سيدي أحمد": (طويل)

فلا صبر عن شرب المدام إذا صفا فإن مزجت فالشرب أبلغ منيتـــي[2]

إن المدام الصافي عند "ابن عجيبة"، وغيره من شعراء التصوف، يشير إلى التوحيد الصرف الخالص، وشهود الحق بالحق، والتحقق بفناء ما سواه، أما الخمرة الممزوجة فإشارة إلى النزول من حضرة الجمع[*] ومزج الوجود الحق بصورة الكائنات العدمية، ويقصد به مزج الحقيقة بالشريعة وعليه "فإن العلاقة التحفيزية بين الخمر الصرف والحقيقة، تتمثل في أن كلا منهما من القوة بحيث قد يصل بالشارب إلى الفناء الكلي عن نفسه وعن صور الكائنات العدمية، وفي هذا من الخطورة ما يدفع به إلى النطق بما يرفضه الدين والذوق العام. أما الماء

[1]- سورة النور، الآية: 35.

[2]- الفهرسة، م.س، ص 104.

[*]- الجمع: لفظ مأخوذ من جمع الهمة على الحق تعالى، ويقابله الفرق: أي تفرقه الهمة في الكائنات مع الحق، والجامع والمفرق في الحقيقة هو الله تعالى: (انظر الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص 64). وعند ابن عجيبة الفرق عبارة عن شهود حس الكائنات والقيام بأحكامه وآدابه، من العبادة والعبودية، والجمع عبارة عن شهود المعنى القائم بالأشياء، متصلا بالبحر المحيط الجبروتي. أو يقول: الفرق شهود القوالب والجمع شهود المظاهر... معراج التشوف، ص 89.

الذي هو رمز للشريعة، فهو يخفف من سورة الخمر (الحقيقة) ويجعلها تنقل الشارب (المريد) من حال السكر أو الجمع وهو التوحيد،إلى حال الصحو الثاني أو الخرق الثاني(وهو التوحيد الصرف متلبسا بصور الكائنات العدمية)[1] .

كما تتردد في ديوان "سيدي أحمد" مصطلحات أخرى كالخان "الذي هو محل وجود المدامة، وقد يكون صدر الرسول، وقد يكون قلب العارف من خلال سياق القصيدة، وقد يكون كل شيء في الوجود حانة، ما دام الصوفي يستشعر فيه جمالا يمثل الجمال الإلهي"[2] .

و"الكأس"[3] كما في قوله: (طويل)

فطورا تغيب الخمر في جرم كأسها	وطورا تغيب الكأس في خمر نشوتي
فأشباحنـــا كأس وأرواحنـــا خمـــر	وساق لها جذب العناية حفـــت[4]

وهذه الكأس ترمز إلى البدن بوجه عام، وإلى قلب الإنسان أو قلوب الأنبياء والأولياء على وجه الخصوص، وفي هذا الصدد يقول "أحمد بن عجيبة" معلقا على بيت لابن الفارض[5]: "لهذه الخمرة الأزلية كأس، وهي قمر التوحيد الخاص، فمن كان مشركا بثنوية السوي أو برؤية الأشياء مع المولى، فلا يشرب من خمر الهوى، أو نقول: من كان قلبه

[1]- محمد يعيش، شعرية الخطاب الصوفي، م.س، ص 314.

[2]- نفسه، ص 318.

[3]- " كناية عن سطوع انوار التجلي على القلوب، عند هيجان المحبة، فتدخل عليها حلاوة الوجد حتى تغيب، وذلك عند سماع أو ذكر أو مذاكرة. وقيل الكأس هو قلب الشيخ: فقلوب الشيوخ العارفين كؤوس لهذه الخمرة يسقونها لمن صحبهم وأحبهم (انظر "معراج التشوف)، ص 99.

[4]- الفهرسة، م.س، ص 104.

[5]- البيت هو: لها البدر كأس وهي شمس يديرها *** هلال، وكم يبدو إذا مزجت نجم
انظر ديوان ابن الفارض، م.س، ص 140.

مشحونا بحب الأشياء، أو مفتونا بنيل الدنيا، فلا يذوق شيئا من هذه الحميا أي "الخمر"[1].

تلك، إذا، أهم المصطلحات الصوفية المنتظمة في المعجم الخمري لدى شاعرنا "أحمد بن عجيبة". مصطلحات لم يشذ فيها عمن سبقوه من سالكي الشعر الصوفي سواء بالمشرق أو الأندلس، وحتى بالمغرب كذلك، فالتغني بالخمرة عكس لدى هؤلاء التعلق بالحب الإلهي في أبهى صوره وأسمى تجلياته، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال، لا الحصر، أسماء مغربية سطع نجمها في هذا الميدان سواء ممن سبقوا "سيدي أحمد" كأبي سالم العياشي (ت 1090هـ) أو ممن عاصروه كحمود بن الحاج (ت 1232هـ) أو ممن أتوا بعده كمحمد الحراق" (ت 1261هـ) وغيرهم كثير...

1- شرح خمرية ابن الفارض لأحمد بن عجيبة، م.س، ص 111-112 .

ب- الحقيقة المحمدية:

إن الحقيقة المحمدية، في عرف المتصوفة، هي العماد الذي قام عليه الكون، وهي أول ما خلق الله عز وجل، وهي صلة الوصل بين الله والناس، والقوة المدبرة التي يصدر عنها كل شيء[1]. وإن النبوة المحمدية لسابقة على ظهور آدم عليه السلام، بالنظر إلى أن للوجود مبدأين: مبدأ الوجود بالقوة، ومبدأ الوجود بالفعل، ويترتب عن هذا أن النور المحمدي كان موجودا بالفعل قبل أن يتجلى الله تعالى بنوره إلى العالم، "فلما تجلى الله بنوره إلى ذلك الهباء والعالم كله فيه بالقوة، قبل منه كل شيء على حسب قربه من النور، ولم يكن أحد أقرب إليه من حقيقته صلى الله عليه وسام، فكان مبدأ ظهور العالم وأول موجود"[2].

وقد أشار "الحلاج" إلى أن لمحمد حقيقتين: إحداهما قديمة، وهي النور الأزلي الذي منه استمدت الأكوان كل علم وعرفان، والأخرى حادثة، وهي الرسالة المحمدية التي وجدت في زمان ومكان معينين[3].

وعن هذه الحقيقة المحمدية عبر "أحمد بن عجيبة" في داليته: (طويل)

وصل إله العـرش في كـل لمحـة	على عنصر الوجـود سـر محمد
تقدم كل الكـون نـور بهائـه	فكان إلى الرحمـان أول عـابـد
قد انشقت الأسرار من سر سره	فأبدى لنا سر الإلـه الممجـد
ومن نوره الأسنى قد انفلقت لنا	معاني صفات الذات من نور أحمد
تلاشت فهوم الخلق في بحر سره	فلا سابق يـدري حقيقـة أحمـد
ولا لاحق، كل تضاءل فهمـه	وكيف ينال الشمس من هو عن بعد[1]

[1]- زكي المبارك: "التصوف الإسلامي في الدين والخلاق"، دار الكتاب، مصر 1954، 230/1.

[2]- د. عاطف جودت نصر: "شعر عمر بن الفارض"، مرجع سابق، ص 205.

[3]- الطواسين للحلاج، تحقيق ماسينيون، ص 9، مكتبة المثنى بغداد.

إن "ابن عجيبة" يعتبر محمدا صلى الله عليه وسلم الأساس الذي قام عليه ولأجله الوجود، فنوره قديم يضرب بجذوره في الأزل، وبه انفجرت الأسرار وانفلقت النوار...ويبدو أن شاعرنا متأثر بصنيع القطب "عبد السلام بن مشيش"[*] في تصليته، حيث فسر "ابن عجيبة" انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار الواردين في هذه التصلية بقوله: "ويحتمل أنه يريد (أي ابن مشيش) بقوله: منه انشقت الأسرار، أي أسرار الجبروت، ومنه انفلقت الأنوار، أي أنوار الملكوت، أو تقول: منه انشقت الأسرار، أي أسرار الحقيقة، وانفلقت الأنوار أي أنوار الشريعة، أو تقول منه انشقت الأسرار أي أسرار الإحسان، وانفلقت الأنوار أي أنوار الإيمان والإسلام، أو تقول: منه انشقت الأسرار: أسرار عالم الغيب، وانفلقت الأنوار: أنوار عالم الشهادة، أو تقول: منه انشقت الأسرار: أسرار القدرة، وانفلقت الأنوار: أنوار الحكمة"[2].

وقد تردد هذا الموضوع لدى الشعراء المغاربة الذي سلكوا منحى التصوف وحسبنا في هذا المقام أن نومئ إلى "حمدون بن الحاج" (ت 1232هـ) الذي قال في إحدى مولدياته: (بسيط)

---

[1]- الفهرسة، م.س، ص 104.

[*]- أبو محمد عبد السلام بن مشيش، ولد بقبيلة بني عروس التابعة لعمالة تطوان، ولا يعرف تاريخ ولادته، إلا أن بعض المؤرخين ذكروا أنه ولد سنة 559هـ أو 563هـ، نشأ بقرية الحصين، وحفظ القرآن الكريم بالروايات السبع دون الثانية عشرة من عمره على يد الولي الصالح سيدي سليم دفين قبيلة بني يوسف. من شيوخه في العلوم الشرعية الحاج أحمد الملقب أقطران. أخذ الطريقة عن العارف بالله سيدي عبد الرحمن بن الحسن الشريف العطار المدني الشهير بالزيات... توفي سنة 622هـ. انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، م.س، ج 4، ص9. والمطرب، م.س للتليدي،ص90.

[2]- شرح صلاة القطب ابن مشيش، لأحمد بن عجيبة، م.س، ص 16-17. وقد ورد في "معراج التشوف"، الشريعة تكليف الظواهر، والطريقة تصفية الضمائر، والحقيقة شهود الحق في تجليات المظاهر. فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده.... فالشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لتزيين السرائر، ويقال: الشريعة عين الحقيقة: من حيث أنها وجبت بأمره، والحقيقة عين الشريعة من حيث أنها مكلف بها من قبل الشريعة ص95،

زَيْـــنُ الْبَرِيَّةِ بَـــــــذْرَةُ الْخَلِيقَـــةِ	زَهْـرَةُ الحَقِيقَـــةِ أَزْكَاها وَأَذْكَـاهَـــــا
أصـــــل الوجود وبهجة الصـــــدور	إنسـان العيـــون ومبناهـــــا ومعناها
نور السماوات، ونور الأرض كوكبها	مصباح مشكـــــاتها سراج مجـــــلاها
لولاه لم تبـــد أزهار السماء ومـــا	جـــــرى بها ابــــن غزالة ليرعـــاها
لولاه ما نسجت أرض قطائف من	نــــــور ولـم تـــر ماءها ومرعـــاها
لولاه لا عرش لا كــرسي لا قلـــم	لا لـــوح لا فرش لا جبال أرساهــا[1]

وقد استلهم "أحمد بن عجيبة" وغيره من شعراء التصوف المغاربة المعاني التي تناولها "سلطان العاشقين" عمر بن الفارض وبخاصة تائيته المعروفة بنظم السلوك[2].

كما يعتبر "سيدي أحمد" أن النور المحمدي توسط الكون فشملت نفحاته الموجودات، فلولا وساطته لكان الوجود متجهما عقيما يطبعه الجفاء: (طويل):

توســـط في الأشيـــاء نور بهائــــه	فلولا وســـاطـــة النبـــي محمــــد
لكان على الأصل الموسوط من الجفا	ولم ير في الـــكونيـــن نور محمــــد[3]

كما يعبر "ابن عجيبة" في بعض المواطن عن الحقيقة المحمدية بالعقل والقبضة النورانية[1] النورانية[1] والملك والروح المقدس وملكوت الله وبحر اللطافة والصفا والجبروت، على غرار ما نجد في تائيته (طويل)

---

[1]- حمدون بن الحاج: "النوافح الغالية في الأمداح السليمانية" دراسة وتحقيق الدكتور أحمد العراقي (1421هـ/ 2000م)، ص 87، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

[2]- انظرها في ديوان ابن الفارض، م.س، ص 105- 106.

[3]- الفهرسة، مرجع سابق، ص 107.

إذا حبست نفس في سجن الهوى الذي ... تقيد به العقل في قهـــر قبضـــة

وأشغلـــها حس الأوانـــي لحكمـــة ... فلم تر إلا الكون في كل وجهـــة

فذلـــك عين الملـك بالحس حاصل ... وناظره المحجوب في سحب ظلمة

وإن نفـــذت روح المقــــدس ســـره ... إلى درك سر الذات خلف الأنية

ونعني به ســر المعاني التــــي ســرت ... في كل الأواني عند أهل الحقيقــة

فذا ملكـوت الله يسمـــــى لوسعـه ... وعـارفه يحظـــى بفتـــح بصيـــرة

وإن سبحت بحر اللطــافة والصفـــا ... وأصل الأصـــول والفـروع بفكرة

فذا جبروت ليس يدركـــــه الفتـــى ... ولكن يخـــوض منه في طرق لجة[2]

إن شاعرنا يتحدث عن الملك والملكوت والجبروت واللطافة... إلخ وهي كلها مصطلحات صوفية وطيدة الصلة بالحقيقة المحمدية "فالملك ما ظهر من حس الكائنات، والملكوت ما بطن فيها من أسرار المعاني والجبروت: البحر المحيط الذي تدفق منه الحس والمعنى والحاصل أن القبضة التي ظهرت أولا من فضاء العماء، حسها الظاهر ملك ومعناها الباطن ملكوت، والبحر اللطيف المحيط الذي تدفقت منه: جبروت. فأسرار المعاني رياض العارفين، لأنها محل نزهة أرواحهم، ولا شك أن المعاني لطيفة، لا تظهر بهجتها إلا في الحس الذي هو الملك، والحس من حيث هو، مضاف إلى نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه ما ظهر إلا له، وما انشقت أسرار الذات إلا من نوره"[3].

---

[1]- يعادل شاعرنا "اصطلاح القبضة" بـ "صورة محمد عليه الصلاة والسلام أو بـ "آدم الأكبر". (انظر "ابن عجيبة" تقييدان في وحدة الوجود)، ترجمة: جعفر الكنسوسي لمقدمة (Claude ADASS) في كتاب " Ibn Agiba : deux traités"، م.س، ص 8.

[2]- الفهرسة، م.س، ص 108.

[3]- معراج التشوف،م.س، ص 89-90.

والحديث عن الحقيقة المحمدية يفضي بالضرورة إلى مدح من قام الكون لأجله والتغني بشمائله، إذ هو السيد الكريم الممجد، المقرب من حضرة رب العزة والجلال: (طويل).

لقـد خصنا الإله معشر أمـــة   بأشـرف عز من كرامـــة أحمد

رســـولا كريما هينــــا متبجـــلا   حميدا عظيما في السيادة والمجـــد[1]

وهذا الرسول الكريم هو الشفيع لأمته يوم الحشر، الحاجب المانع من الضلال والزيغ: (طويل)

حبيبـــا مشفعـــا وزيـرا مقربـا   يوصل حضرة الشهود إلى العبد

حجابـــا عظيما واقفا متأدبا   يرد عن الإلحاد والزيغ والبعـــد[2]

كما نجد في بعض أزجال "سيدي أحمد" ما يشير إلى أن الرسول عليه السلام طبيب الأسقام، المقرب من حضرة الرحمان، المسرى به إلى الدرجات العلى:

أنا فنيـــت فـــي ذا الحبيـــب   سيـــــدي رســـول اللـــــه

هو الشفيـــع لمـــن يريـــــد   دخــــول حضـــرة اللـــــه

هو الطبـــيب لـــذي السقام   ربـــــي حـــــب وأعطـــــاه

أنا فنيـــــت في ذا الحبيـــب   سيـــــــدي رســـــول اللــــه

به أسـرى الرب الجليـــــل   إلـــــى نـــــوره وبهـــــــاه

جبريـــــل معه علـــى البراق   أركـــــب رســـول اللـــــه

به خــــرق سبعـــا طباق   إلـــــى ســـــره وسنـــــاه

أنا فنيـــت في ذا الحبيـــب   سيــــــدي رســـول اللـــه

---

[1]- الفهرسة، م.س، ص 105.

[2]- نفسه، ص: 105.

ما زال يرقـــيه في المعـــاني	حيـــن حـــب وأدنـــاه
فثم خـــص بالكـــلام	فلـــم يشهـــد ســـواه
سر الحبيـــب مع الحبيـب	حبيـــب عظيـــم الجـــاه[1]

ويستتبع هذا أن تفخر به الخلائق، لأن الله تعالى غمره بحبه المقدس: (زجل)

الخلـــق بـــه تفتخـــر	مـــن حسن نـــوره وبهـــاه
فمن حبـه ذو الجـــلال	فكـــل شـــيء يهـــواه[2]

كما أن حب هذا النبي العظيم جسر يؤدي إلى حضرة الإحسان ويقرب من الرحمان: (زجل)

حب الرسول باب الدخول	لحـــضـــرة الإحســـان
من يقتفي الرسول يصيـــر	حبيـــب إلى الرحمـــان
نص الكتاب بذا صريـــح	في ســـورة العمـــران[3]

ولعل "سيدي أحمد" لم يشذ، وهو يتغنى بالشمائل المحمدية، عن العرف المتداول في هذا الغرض عند الشعراء، فهو يعدد خصال الرسول الدمثة، ويذكر بعض معجزاته (كما مر بنا في الأبيات الزجلية السابقة، ومنها حديثه عن الإسراء والمعراج) علاوة على مدح آل بيته وإبراز لواعج الشوق إليه والصلاة عليه: (زجل): "أمحمد نارت بك العوالم، أمحمد بانت بك المعالم، أمحمد حارت فيك المفاهم...، انشقت بك الأسرار وانفلقت بك الأنوار، وأسجد لك الأقمار، أمحمد حقت بك الحقائق، أمحمد لاذت بك الخلائق، أمحمد أظهرت علم

[1]- نفسه، ص 109-110.
[2]- الفهرسة، م.س، ص 110.
[3]- نفسه، ص 116.

الطرائق، أظهرت الدين للعباد ثم العباد، أرفع بك الشكوك وأخضع لك الملوك، واظهر بك السلوك لمن يريد مولاه، المدد المدد أيا رسول الله، أمحمد نارت بك السرائر، أمحمد زانت بك الضمائر، أمحمد فتحت بك البصائر...،أظهر بك الوجود وأرفع بك الجحود، وبان بك الشهود، لمن عرف مولاه المدد أيا رسول الله.

يـــا رب صـــل بالتمـــام	على عظيـــم الشـــان
محمـــد الهـــادي الكريـم	ما تنطـــوي الأزمـــان
والآل ذي الطهـــر العظيـم	وصحبـــه الأعيـــان[1]

وهي المعاني نفسها التي نجدها عند كبار شعراء المديح النبوي في المشرق، كالبوصيري[*] وفي المغرب كذلك مع شعراء سبقوا "سيدي أحمد" أو عاصروه أو أتوا من بعده. فممن سبقوه نذكر على سبيل المثال لا الحصر "محمد عبد الله بن يحيى الشقراطسي"[2] صاحب القصيدة المعروفة "بالشقراطسية في مدح خير البرية" والتي مطلعها: (بسيط)

الحمـــد لله منا باعـــث الرسل	هدى بأحمد منا أحمد السبـــل[3]

و"أبا عبد الله بن أبي الخصال"[4] صاحب "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب" والتي مطلعها: (طويل):

1- الفهرسة، م.س، ص118.

*- صاحب البردة التي مطلعها: أمن تذكر جيران بذي سلم *** مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

والهمزية التي مطلعها: كيف ترقى رقيك الأنبياء *** يا سماء ما طاولتها سماء

2- أبو محمد عبد الله بن يحيى الشقراطسي (ت 466هـ) من فقهاء المالكية درس بالقيروان والمشرق (انظر الأعلام للزركلي، 144/4.

3- النبهاني يوسف بن إسماعيل، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، المطبعة الأدبية- بيروت 1320هـ، ص 198/3.

4- عبد الله بن أبي الخصال (465- 540هـ) وزير الأندلس، شاعر وكاتب، انظر ترجمته بالأعلام للزركلي 96/7.

إليـــك فهمي والفـــؤاد بيثرب	وإن عاقني عن مطلع الوحي مغربي
أعلـــل بالآمال نفســـا أغرها	بتقديـم غاياتي وتأخير مذهبـــي[1]

وأسماء أخرى عديدة كالقاضي عياض وأبي سالم العياشي...

وممن عاصروا "سيدي أحمد" نذكر: "أبا الفيض حمدون بن الحاج" (ت 1174 هـ / 1232 م) والذي خلف آثارا شعرية كثيرة في المديح النبوي[2].

وممن أتى بعد سيدي أحمد" (أو عاصره لفترة وجيزة) نذكر: "محمد الحراق"[3] الذي يرى أن النبي العظيم وأكرم الرسل به تجلى الكروب والمدلهمات، وهو ملاذ الورى وشفيعها يوم الدين: (البسيط):

يا أكرم الرسل الكرام ومن بـــه	جليت كروب الأولـين ســـــواءي
ماذا بأول هــــائـــل فرجتــــه	لعنايـــة تسمــــو على الجـــوزاء
أنت الملاذ إذا الورى دهمتهــــم	نــــار الهمــــوم وشـــدة اللأواء
وتقاصرت همم الكرام وحلقــوا	طــــــرا ببابك واسع الإعطــاء
فغدوت تشفع للجميع لينشــر	الرحمـــان حمـــدك في أجل لواء[4]

---

[1]- انظر: "أزهار الرياض في أخبار عياض" للمقري، تحقيق: د. عبد السلام الهراس وأحمد سعيد أعراب، ص 176/5.

[2]- انظر: "النوافح الغالية"، م.س، ص 87.

[3]- هو أبو عبد الله محمد الحراق الحسني الشفشاوني، نزيل تطوان ودفينها، وشيخ الطريقة الدرقاوية الشاذلية بها (1261هـ 1844م، (انظر ترجمته في "تاريخ تطوان" لمحمد داوود، 6/289-396.)

[4]- ديوان الحراق، ص 28، باعتناء الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير 1423هـ/ 2003م.

ونماذج الشعراء المغاربة الذين أبدعوا في غرض المديح النبوي كثيرة لا يكاد يحصيها عد، وهو ما يعكس ازدهار هذا الغرض في الغرب الإسلامي حتى "اكتمل وصار غرضا قائم الذات"[1] في الوقت الذي تأخر ظهوره في المشرق.

[1]– الدكتور عباس الجراري: "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، 143/1، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة 1406/3هـ - 1986م.

ج- التوسل:

يتردد التوسل والابتهال إلى الله تعالى في أغلب الأشعار الصوفية، ولا نعجب من ذلك إذا عرفنا أن الدعاء مخ العبادة، إذ حث عليه الإسلام ورغب فيه، بل إن للدعاء فعالية عجيبة قد تحول دون وقوع القضاء "وقد تنبه السلف قديما إلى فضيلة الدعاء، واقترحوا له جملة من الآداب تراعي خصوصية شرف بعض الأوقات والأحوال التي يستحب أن يكون فيها، كما تراعي حال الداعي في اهتمامه بدعائه وعدم تكلفه، وبنفسه وتصفيتها في سعيها للتقرب من خالقها"[1].

ويروم توسل "سيدي أحمد بن عجيبة" نشدان المغفرة والثواب، وتحسين الظاهر واالباطن، كي يلقي مولاه بقلب سليم، وهو في كل ذلك يدعو ويتوسل بأسماء الله الحسنى: (طويل)

فيا أول اجعلني في أول سابـــق ... إلى حضرة القدوس في خير مقعد

ويا آخر اختم لي بخير سعـــادة ... تضـــم إلى روح الوصال المـؤيد

ويا ظاهر حسن ظواهري التـــي ... بتهذيبهـــا يسري المدد إلى العبد

ويا باطن زين بتحقيق نعمة الـ ... شهــــــود بواطني بجمع مؤبد

ندائي ما سمع يا سميع لمن دعـا ... سماع أبي يحيى الحصور الممجـــد[2]

[1]- الشعر المغربي على عهد محمد الثالث العلوي وابنه سليمان، "موضوعاته الكبرى ومقوماته الفنية"، "أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها"، إعداد: د. أحمد العراقي، بإشراف: د. محمد السرغيني، القسم 1/ الجزء 2، ص 328، 1991- 1992.

[2]- الفهرسة، م.س، ص 109،و يلاحظ اضطراب في أوزان بعض الأبيات كالأول والثالث...

كما لا ينسى الشاعر التماس النصر والهداية مع رجائه مشاهدة النور الرباني يوم يتجلى الله تعالى لعباده المؤمنين: (طويل)

بالنصر منك يا نصير تحفنـــي وأيــــــد أموري بالهداية والرشد

وفي حضرة التقديس تجمع بيننا وبين شهـود للجمال المؤبـــــد[1]

إن "ابن عجيبة" لا يبغي بتوسله شيئا دنيويا أو عرضيا كتفريج كرب أو إبلال من علة (وهو ما نجده عند عدد من شعراء التصوف) بل إن رجاءه الأسمى هو نيل ثواب الله ومرضاته والدخول في رحمته، وتمهيد السبل لإصلاح النفس بغية الوصول إلى حضرة العلي: (طويل)

وحل بيننـــا وبين غيـــرك إنــه حجاب من الوهم المبعد للعبــد

أ الله بالتكــــرار أذكـــر داعيا بحرف نداء للقـــريب الموحــد

ثلاثا ترقـــي الروح في كل مـــرة إلى أن تخوض الجبروت في مشهد

فمـــــن فرض القرآن أخبر أنــه يردك يا روحي لجمــع مؤبـــد

فيـــا رب آت من لدنك برحمــة تعم الأنام في مغيب ومشهـــد

وهيء لنا رشدا عظيما من أمرنـا يكون سبيل الوصل للعلي الفـرد[2]

كما لا يفوت شاعرنا التوسل بخير البرية لما يؤمله في ذلك من استجابة أكيدة، خاصة وان الشاعر يطلب السير على نهج النبي الكريم ليصل إلى حضرة الرحمان: (طويل)

فيا رب بالهادي الشفيـــع محمد لحوقـا بنســـب الحبيب محمد

بتحقيق حسبه الذي هو عنصر لكــل كمال بالمفاخـــر مسند

---

[1]- الفهرسة، مرجع سابق، ص 109.

[2]- نفسه، ص 109، ويلاحظ اضطراب في الوزن في الشطر الثاني من البيت الأخير.

وعرفني إياه بمعــرفة غـــــدت تسلمنـــي ورد الجهالة والبعـــد
ونكرع منها من موارد فضلكـم ونروى من التسنيم أعظم مــورد
على نهجه احملني لحضرتك التي إليها يأوي أولو البصائر والأيدي[1]

وبهذا يكون توسل "ابن عجيبة" قد استجاب لواقع ذاته وواقع عصره، بعد أن ضاق ذرعا بالمطاردات والمضايقات، بل والتعذيب أيضا* ... وهو لا يروم بهذا التوسل الهروب من واقعه، بل التخفيف من غلوائه ومحاولة خلق ظروف مواتية لإصلاح النفس وتهذيبها حتى تلقى مولاها في أحسن مقام وأبهى صورة، فغايته، أولا وأخيرا، هي أن يكون حرا في ممارسة "مجاهداته" دون تضييق أو انتقاد...

1– الفهرسة، م.س، ص 108.

*– تعرضت الدرقاوية، بزعامة أحمد بن عجيبة، إلى مضايقات بسبب نهجها الإصلاحي الذي لم يرق أرباب المصالح وأصحاب الرياسة (انظر الفصل الأول من هذا البحث ص9).

د- مدح سالكي الطريق وبيان شروطهم:

شكل الكلف بأهل التصوف والمشايخ والسعي إلى ملازمتهم والنهل من بركتهم موضوعا محوريا في ديوان "سيدي أحمد"، ولا بدع في ذلك ما دام "التعلق بأهل الله واتباعهم والانحياش إليهم وسماع آدابهم والتأدب بها يحصل به كل خير وفوز ورشاد، وينتفي به الكبر والعجب، وهو سبيل إلى الارتقاء إلى بعض مقاماتهم السامية..."[1].

وينبغي للسالك المبتدئ أو المريد أن يتخذ له شيخا يصحبه ويلازمه ويأخذ عنه، ولكن كيف للمريد أن يجد هذا الشيخ؟ وما هي مواصفاته؟ إن الجواب يحدد "ابن عجيبة" في كون الشيخ هو الذي يمتلك مفاتيح العلوم، ويأخذ بناصية المعاني ويعرف أسرار الأواني ويلم بالجبروت والملكوت علاوة على اللاهوت والناسوت: (طويل):

إذا حبست نفس في سجن الهوى الذي	تقيد به العقـل في قهـر قبضة
وأشغلها حـس الأوانـي لحكمـة	فلم تر إلا الكون فـي كل وجهـة
فذلك عيـن الملك بالحـس حاصل	وناظره المحجوب في سحب ظلمة
فمن خاض في هذي العوالم كلها	وأضحى رئيسا في الجميـع برتبة
فذاك الذي يضحـى كبيرا مقدما	مكينا يربي الخلـق طـرا بهمـة
تناهـى فيـه علـم وذوق وهمـة	عليه قـدر ذو بحـار زكيـة
تداركه جـذب العنـاية مسـرعا	فخاض بحار الجمع في عين شرعة[2]

---

[1]- أحمد العراقي، "الشعر المغربي...، م.س، ص 320.

[2]- الفهرسة، مرجع سابق، ص 105- 106.

وينبغي للمريد أن يتحلى بآداب الفقر ويزهد في الحياة طلبا لرفع الهمة: (طويل):

وللفقــــر آداب تحقــــق نسبـــــة	إلى من لـــــه علـــم التصوف ذائع
زهادته في الكون رفعـــا لهمـــــة	وإيثاره بـــــــذلا بقلـــب يســــارع[1]

كل هذا مع الحرص على التأدب مع الشيخ كغض الصوت في حضرته والانصياع لأوامره وتجنب معارضته: (طويل):

مع الشيخ آداب تحقـــق نسبــة	إلى من له علم التصـــوف ذائـــع
خضوع وهيبة وصـــدق محبـــة	وعند كمـــال فيــــه أنه جـــامع
فلا ترفعن صوتا إذا كان حاضرا	ولا تضحكن فالضحك فيه فجائع
ولا تعترض أصلا عليـــه فإنـــه	بنور شهــــود للبصيـــرة تابـــع[2]

وجدير بالمريد أن لا يبغي عن شيخه حولا درءا لهلاكه، وألا يغادر عش التربية إلا وهو متمكن مما أحكم تعلمه: (طويل):

ولا ترميـــن عينا إلى مــــاء غيره	فترمى كسيرا في المعاطش ضائع
ولا تخرجن من عش تربية غــدت	تمدك بالأنــــــوار منها تتابع
إلى أن ترى الترشيد قد حان وقته	وصرت من التمكين أمرك شائع[3]

إن ملازمة الشيخ تجعل النفس الدنية تنخنس وترعوي، فيتجرد المريد من هوى النفس وحظوظها: (طويل):

[1]- الفهرسة، مرجع سابق، ص103.
[2]- نفسه، ص 103.
[3]- الفهرسة، م.س، ص 103.

ولا يمكن الخلــوص من رق نفسه إلا باصطحاب الشيخ ذي الحال والسر
يملكـــه زمـــام أمـــره كلـــه فتنخنـــس النفـــس الدنيـــة بالحصر
فتستوي عنده الحظوظ بلا عيـــن مع الحقوق العليا بغيـــب عن الغيـــر
لأنـــه في الأفعـــال بالله غائبا عن النفس والهوى، فياله مـــن ســـر[1]
ســـر[1]

ولعل "ابن عجيبة" يقتفي صنيع أستاذه "محمد البوزيدي"[2] الذي جعل علامات المريد المريد الصادق: (غير موزون):

له همـــة عليـــا بالله تعلقـــت وروح منه اشتاقت إلى سر حضرة
وأكبر عقل منـــه للعلم مقبـــل وقلب إلى محل نـــزول حكمـــة[3]

يقول "ابن عجيبة" شارحا أبيات أستاذه: " يقول رضي الله عنه في وصف المريد الصادق: له همة عالية تعلقت بالله تعالى، فلا يردها عنه شيء، وله روح اشتاقت إلى سر الحضرة فلا يعوقها عنها أحد، وعقله الأكبر مقبل على العلم بالله وهو العلم النافع، وقلبه السليم مترقب بنزول الحكمة الإلهية..."[4].

كما يحدد "أحمد بن عجيبة" جملة من أركان الولاية وموادها، كصحبة الفحول من أهل التصوف وملازمة الذكر بالجنان وهجر الحس:

---

[1]- الفهرسة، م.س، ص 123.

[2]- محمد بن احمد البوزيدي السلماني الشريف الحسني، اخذ أولا في تجويد القرآن ثم تجرد للعبادة والسياحة سنين، لازم الشيخ العربي الدرقاوي وبقي في خدمته نحو ستة عشرا عاما... توفي في قبيلة بني سلمان الغمارية ليلة الأحد 9 محرم 1229هـ (انظر ترجمته في "سلوة الأنفاس" لمحمد بن جعفر الكتاني، و "المطرب" للشيخ عبد الله التليدي).ص216.

[3]- شرح تائية البوزيدي في الخمرة الأزلية لأبي العباس أحمد بن عجيبة، م.س، ص 115.

[4]- شرح تائية البوزيدي، م.س، ص 116.

(زجل):

يـا مـن يـرد مراتـب الرجـال | فليـرب المعنـى بكـل حـال
بصحبـة الفحـول أهـل الفن | أو فـكـرة تذيـب كـل كـون
أو استعمـال الذكـر بالجنـان | فهـذه زوائـد المعـاني
وليهجر الحـس بكـل حـال | بالفكـر والعقـل والمقـال
فإن أتـى بهـذه الخصـال | حـاز مـن العـرفان أمرا عـال[1]

إن التواضع والفاقة والفناء عن الورى، شروط لازمة للمريد إن أراد العز والرفعة وبسط المواهب والعرفان: (طويل):

تحقق بوصف الفقر في كل لحظـة | فما أسرع الغنى إذا صحح الفقـر
وإن تردن بسط المواهب عاجـلا | ففي الفاقة ريح المواهب ينشـر
وإن تـردن عزا منيعا مؤبـدا | ففي الذل يخفى العز بل ثم يظهـر
وإن تردن رفعا لقـدرك عاليـا | ففي وضعك النفس الدنية يحضـر
وإن أردت العرفان فافن عن الـورى | وعن كل مطلوب سوى الحق تظفر
ترى الحق في الأشياء حين تلطفت | ففي كل موجود حبيبـي ظاهـر[2]

دون غض الطرف عن ترك حظوظ الدنيا والزهد فيها، إلا ما سد الحاجة، وترك النفس بلا تدبير: (رجز/ دارج):

الرفض للدنيـا بـكل حـال | إلا الـذي يسهل مـن جـلال

---

[1]- الفهرسة، م.س، ص 124.

[2]- نفسها، ص 121- 122.

من بعد الحاجات والاضطــــرار	فإن أتـــت قبــــل فـــذو إيثـار
والزهد في الأخرى لحظ النفس	إلا النظر في وجه عين القــدس
والترك للنفـــس بلا تدبيـــر	ولا اعـــتراض منه للقـديــــر[1]

كما يعتبر "ابن عجيبة" حب رجال التصوف سبيلا لنيل محبة الله تعالى: (زجل):

من يقصـــدهم حاشا يخيـب	يضحــــى حبيــــب اللـــه
إلى يصيـــب أهل الكمــــال	ربـــــي حــــــبو وادنـــــاه[2]

ومن طعن فيهم فهو شقي طمست بصيرته، كيف لا، وبهم تزول النقم ويعرف نور الإله وينال رضاه: (زجل):

في كل حين تظهـــر رجـــال	حديــــث رســــول اللـــه
إلي يطعن فيهـــم شقــــي	ربــــي طمـــس وأعمـــــاه
بهم تــــزول عنـــا النقـــم	بهـــم نـنـــــال رضـــــاه
بهم ينـــال حب الحبيـــب	بهـــــم يعــــرف سنــــاه
ربــــي ودنـــــا بالعطـــــا	مـــن فيـــض رجــــال الله
من يصحبنـــا حتمــا ينال	حظنـــــا مـــن حـــب الله[3]

ولم يقتصر "ابن عجيبة"، شأنه شأن شعراء التصوف، على مدح أشياخ التصوف في بلده، بل لقد مدح أيضا جملة من أعلامهم المعروفين في البلاد الإسلامية، فهو يذكر مثلا في

[1]– الفهرسة، م.س، ص 122.
[2]– نفسه، ص 110.
[3]– نفسه، ص 110– 111.

أحد أزجاله شيخه محمد بن أحمد البوزيدي[1] ومولاي العربي الدرقاوي[2] ومولاي علي العمراني[3] وأبا الحسن الشاذلي[4] وسيدي عبد الرحمان المجذوب[5] وغيرهم ....[6].

إن "ابن عجيبة" وهو يمدح مشايخ التصوف ومريدي الطريق، إنما يعترف بأفضالهم ويقدر مجهوداتهم في إصلاح أنفسهم واتهامها وردعها، ويتطلع، من أعماقه، إلى أن يكون واحدا منهم، إذ إنهم أهل الله وخاصته... وقد شكل هذا اللون من الشعر "مظهرا لاستمرار النشاط الصوفي والزهدي بالمجتمع المغربي آنذاك، وانتشاره بين أفراده، تغنوا فيه بالحب الإلهي، وقالوا بالحقيقة المحمدية، وأبدوا تعلقهم بمشايخ طريق القوم أحياء وأمواتا ولم يخرجوا فيه كثيرا عن الطابع السني الغالب على تصوفهم الفردي والطرقي"[7].

---

[1]- انظر ترجمته في ص 44 من هذا البحث.

[2]- أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الزروالي، ولد بقبيلة بني زروال بعد الخمسين والمائة واللف، وبها نشأ إلى وفاته، حفظ القرآن بالقراءات السبع ثم درس بالمدرسة المصباحية بفاس ....انظر ترجمته في مقدمة رسائله: تحقيق: بسام محمد بارود، ط1، ص 31إلى 59، المجمع الثقافي 1999، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، و"المطرب" للشيخ عبد الله التليدي، ص205، م.س. وسلوة الأنفاس، م.س، 177/1

[3]- علي بن عبد الرحمان بن محمد بن علي بن إبراهيم بن عمران الشريف الحسني الإدريسي العمراني، من شرفاء بني عمران أهل قبيلة بني حسان الملقب بالجمل، توفي سنة 1993هـ (انظر ترجمته في "المطرب للتليدي، م.س، ص207.).

[4]- علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف أبو الحسن الهذلي الشاذلي (571هـ 656هـ) أخذ طريقته على يد الشيخ سيدي محمد بن حرازم بفاس ثم عن أبي الفتح الواسطي بالعراق ثم على يد القطب عبد السلام بن مشيش (انظر ترجمته في: الأعلام 120/5،

[5]- أبو محمد عبد الرحمان بن أبي السرور عياد بن أبي إسحاق يعقوب بن سلامة بن خشان الفرجي الجيلالي، المعروف بالمجذوب، أصله من أولاد فرج إحدى قبائل دكالة (909هـ – 976هـ)انظر ترجمته في "سلوة الأنفاس" 221/2 للكتاني، "الاستقصا" 88/5 للناصري، "المطرب" 127 لعبد الله التليدي، مجلة دعوة الحق، عدد: 10-9 السنة 11.

[6]- انظر الفهرسة، م.س، ص 111- 112.

[7]- د. أحمد العراقي (الشعر المغربي...)، م.س، ص 327.

هـ - الزهد:

يرتبط الزهد غالبا بالانصراف عن شهوات الحياة الدنيا وملذاتها. و"البعد عن بهرجها الكاذب وزبرجها اللامع وزخرفها الخداع، والاكتفاء بضروريات الحياة"[1]. وقد أسهب كتاب الله في ذم الدنيا وثلبها واعتبارها دارا للهو واللعب، ونعتها مرارا بأنها متاع الغرور. كما اتصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالزهد، وحذا حذوه كبار الصحابة والتابعين...

ولابد للذي يروم الدخول في سلك التصوف من التشبع بالزهد، إذ هو "مقام شريف، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة"[2].

ويقوم غرض الزهد عند "ابن عجيبة" على ترك حظوظ الدنيا وكل ما قد يفضي إلى الابتعاد عن الله عز وجل:

يا عبدي كن مستصغيـا لقولي	وألــق سمعــك بــلا بعــاد
مرادي منك نسيــان المــراد	بصــدق الحــب منك والوداد
مرادي منك الترك للحظــوظ	وما يفضــي بــك إلى البعــاد
مرادي منك نسيان اللحــوظ	لغيــر حينــا بــلا مــراد[3]

---

[1]- علي الخطيب، "اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي"، ص 93، دار المعارف/ 1404هـ.

[2]- السراج الطوسي "اللمع"، تحقيق: د. عبد الحليم محمود- طه عبد الباقي سرور، ص 72، مكتبة الثقافة الدينية/ القاهرة 1998.ويعرفه ابن عجيبة في المعراج بأنه"خلو القلب من التعلق بغير الرب، أو برودة الدنيا من القلب،وعزوف النفس عنها."ص71.

[3]- الفهرسة، مرجع سابق، ص 119-120.

إن شاعرنا يصدر عن رؤية مشبعة بالروح الإسلامية، مفعمة بالإشراقات الربانية، إذ هو يعي جيدا مضامين القرآن الكريم والسنة المطهرة التي اتجهت إلى تحقير الدنيا ومتاعها واعتبار أن الآخرة هي دار القرار ﴿قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى﴾[1] ﴿وللآخرة ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾[2] ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾[3].

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)[4].

وتبعا لهذا، ينبغي للمؤمن أن يسلم لخالقه جميع أموره وان يريح عقله وفؤاده من التدبير: (رجز دارج):

أتتـــرك الراحـــة في التسليـــم	وتتعـــــب الجنـــــان بالعنـــــــاد
تدبيـــــري سابـــق لكل كـون	فلا تنـــــازعنــــي فــــي مـــــــراد
أرح فؤادك مـــــن التدبيـــــــر	فالعجـــــز عن نفســـك أمر باد[5]

كما أن الثقة بالله تعالى واتخاذه وكيلا سبيل إلى تحقيق كل الأماني:

يا عبدي إن تثق بنــــا كفيــلا	أكفيك كل ضيــــــم أو فســـــــاد

---

[1]- سورة النساء/ 77.

[2]- سورة الضحى/4.

[3]- سورة الحديد/19.

[4]- أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب الزهد، حديث رقم 4102/ ج 2، ص 1373- 1374.

[5]- الفهرسة، م.س، ص 120.

يا عبدي إن تتخــذني وكيــلا أعطيـــك كـــل المنى بالـــوداد[1]

ولا ينبغي للعاقل أن يكون من الذين تغرهم الدنيا فينهمكون في بناء الأماني، لأن معاول الأقدار لها بالمرصاد.

فكل ما تبنـــي مـــن الأماني تهدمه الأقـــدار باستبـــداد
أتبـــني ما ليـــس له تمـــام وتشغل العمـــر بوهـــم باد[2]

ويستتبع ذلك أن يطمئن إلى رحمة الله، وان لا يحمل هم رزقه، لأن الله تعالى كفله له في سابق أزله، فضلا عن أن أرزاق الله تشمل العصاة، فما بالك بمن أحسن عملا: (رجز دارج):

يا عبـــدي قم بخدمتـــي فإنـــي أقـــوم بالقسمـــة والرفـــاد
أنا الـــذي أرزق من عصـــاني فكيف أهل الحب والـــوداد
أنا الذي ضمنـــــت للعبـــاد رزقي وأقسمـــت بأمـــر باد
فإن تعل همـــا بأمـــر رزقي كنت بعيـــن الطرد والإبعاد
يا عبدي لا تطالبنـــي برزقي فرزقـــي واصـــل بلا تنـــاد[3]

إن الله تعالى لا ينسى الخلائق من إحسانه وفضله ولو كانوا من الذين نسوا عهده:

فإني لا أنساك من إحسانـــي ولـــو نسيت عهدي بابتعـــاد[4]

[1]- الفهرسة، م.س، ص 121.
[2]- الفهرسة، ص 120.
[3]- نفسه، ص 121.
[4]- نفسه، ص 121.

ويترتب عن هذا أن يكون المؤمن موقنا بضمان الله عز وجل لأنه أهل البر والوداد، أما إذا تزعزع هذا اليقين فلن يقدر الله حق قدره:

فــبي ثــق فــي ضمـــاني فإنــــي ذو بـــر وذو وداد
فما قـــدرتني حــــق قــدري إن لم تثــــق بضماني ووعــدي[1]

كما ينبغي للمؤمن أن يسعى في إصلاح ظاهره وباطنه من المساوئ كالغل والبخل والكبر، وأن يكف عن حب الشهوات والحظوظ حتى يحقق استقامة النفس التي هي مناط كل فلاح: (طويل):

ولا بد من إصلاح ما كان ظاهرا فإصلاحه منه لباطنه يســـري
فتطهير نفس من مساو تكثـرت كغل وبخل واعتلاء ذوي الكبـــر
إلى غير ذا هي استقامتها التـــي بها نقلت للعقل ذي النهى والزجر
وكفه عن حب الحظوظ تمنيـــا وزجره عن درك الربوبي بالفكــــر
بذا يستقيم في أصالة نـــوره فيرتقي قلبا بالعلــو وبالنصـــر[2]

وهذه الاستقامة هي التي تجعل القلب مطمئنا آمنا من الخلق والفقر وكدر التدبير في أمور الحياة: (طويل):

وفي القلب إن حلت طمأنينة[3] التي تسكنه من خوف خلق ومن فقر
ومن كدر التدبيــر في أمر عيشــه وقد ضمن الرزاق ذا البر والبحـر[1]

[1]- الفهرسة، ص 121.
[2]- نفسه، ص 107.
[3]- عرفها في المعراج: سكون القلب إلى الله، عاريا من التقلب والاضطراب، ثقة بضمانه أو اكتفاء بعلمه، أو رسوخا في معرفته، ص 74.

ولعل "ابن عجيبة" يؤكد مضمون الآية القرآنية: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2]، فذكر الله أمان للقلوب من الهلع والفزع، وحجاب حصين من الجحود والقسوة وهو عين ما أشار إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال عن ابن عمر رضي الله عنه: (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي)[3].

ويبدو أن الدعوة إلى "الفقر"[4] من أهم معالم النهج الزهدي الذي سلكه "ابن عجيبة" وأضرابه من المتصوفة، إذ إن الصوفي الحق " لا يقبل أن يملك شيئا، لئلا يشغله هذا الشيء عن الله وعن العبادة والطاعة"[5]، وهذا الفقر، في حقيقته، مجلبة للغنى وبسط للمواهب: (طويل):

تحقق بوصف الفقر في كل لحظة	فما أسرع الغنى إذا صحح الفقر
وإن تردن بسط المواهب عاجلا	ففي الفاقة ريح المواهب ينشـــر[6]

[1]- الفهرسة، ص 121.

[2]- سورة الرعد، الآية: 28.

[3]- التاج الجامعي للأصول في أحاديث الرسول، تأليف الشيخ منصور علي ناصف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 183، ط 3، 1382هـ / 1962م.

[4]- عرفه في المعراج: هو نفض اليد من الدنيا وصيانة القلب من إظهار الشكوى، ونعت الفقير ثلاثة أشياء: صيانة فقره، وحفظ سره وإقامة دينه، ص 80.

[5]- عبد المنعم خفاجي، "الأدب في التراث الصوفي"، ص 194، دار المسيرة، بيروت، ط1/1980.

[6]- الفهرسة،م.س، ص 121.

كما أن هناك أحاديث صحيحة تشيد "بالفقراء" وتبشرهم بجنات النعيم، فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) رواه الشيخان والترمذي[1].

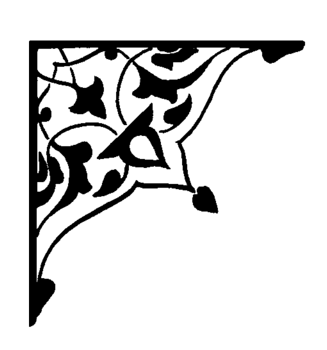
وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ[*]، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك ثم نفض يده فقال: عجلت منيته، قلت بواكيه، قل تراثه)[2].

نخلص، مما سبق إلى أن غرض الزهد عند "ابن عجيبة" يرتبط ارتباطا وثيقا بالتوسل، إذ هما وجهان لعملة واحدة، حيث رام الشاعر من خلال إعراضه عن الدنيا وحظوظها، أن يضفي مصداقيته على توسلاته ابتغاء عفو الله ومرضاته، فجاءت أشعاره في هذين الغرضين (التوسل والزهد) سهلة واضحة المعنى، مصطبغة في أغلب الأحيان بنفحات صوفية.

[1]- التاج الجامع للأصول، م.س، ص 173.

[*]- الحاذ: الحال، ومنه قوله (ص) في الحديث: اغبط الناس المؤمن الخفيف الحاذ أي خفيف الظهر .... ويقال "خفيف الحاذ قلة اللحم" مثلا لقلة ماله وعياله، ورجل خفيف الحاذ : أي قليل المال.
انظر "لسان العرب"، المجلد الثالث، ص 488، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان.

[2]- التاج الجامع، م.س، ص 172.




الفصل الثالث:

البنية التركيبية

أولا: البنية النحوية

ثانيا: البنية البلاغية




يقوم هذا المستوى على تحليل بنيتين: النحوية والبلاغية، وسأحاول في معالجة البنية الأولى الوقوف عند أزمنة الفعل، نوعية الجمل من حيث فعليتها واسميتها وبنية الضمير، بينما سأتناول في البنية الثانية نوعية الجمل من حيث إنشائيتها وخبريتها،علاوة على الأساليب البيانية والمحسات البديعية.

أولا: البنية النحوية:

× أزمنة الفعل:

يلاحظ في ديوان "سيدي أحمد" ذلك التوازن النسبي بين أزمنة الفعل: الماضي (مثل: سقاني، زاد، عشت، صحا، أفرقوا، سكرنا، همنا، غبنا، أشرقت، مزجت...) والمضارع: (أصبحت، اتضلع، نسقى، أحن، تطيش، أهيم، أفنى...) مع سيطرة خفيفة لفعل الأمر: (تمتعوا، تنزهوا تمسك، هم، تنبه، تحقق، صل، سلم، كن، اجعل، اختم، صلوا...) ولعل لصلة فعل الأمر بالدعاء، خاصة ونحن أمام شعر صوفي، علاقة وطيدة بتكرره أكثر من غيره...

واللافت للانتباه أيضا، هو تلك العلاقة الحميمة بين الأزمنة الثلاثة أثناء حديث الشاعر عن " سكرته" واتصالها وتواصلها: (طويل):

سكرنا بها قدما وبعد نشأتي وفي النشأة الأخرى تدوم مسرتي[1]

أي إن السكر قديم (الماضي) وحاضر، وسيدوم في شكل مسرة (المستقبل...).

[1]– الفهرسة، م.س، ص 104.

× نوعية الجمل:

تراوحت الجمل ما بين الفعلية (سقاني حبي، أصبحت، أتضلع، كان فؤادي... يتقطع، صحا الناس، تنحى رداء الصون...) والتي وردت بكثرة لارتباطها بغرضي الأمر والدعاء، والاسمية (غيب الأواني محقق، فناء الأواني في المعاني، مرادي منك...) وقد طغت الجمل الاسمية في الأزجال بشكل خاص (هو الشفيع، الشاذلي بحر عظيم، مولاي علي بحر عميق...).

× بنية الضمير:

أما فيما يخص الضمائر، فنجد شاعرنا يكثر من استعمال ضمير المفرد المخاطب (المقدر في الغالب): تأدب، تمسك، استمع، كن، صل، سلم...(والظاهر أحيانا): تمدك، يردك، نورك، شاهدت، بك، لك، تترك، روحك، أنت... ويتوزع هذا الضمير بين المريد (الصوفي) والله عز وجل في مواطن الدعاء.

كما يكثر شاعرنا من ضمير المفرد المتكلم، الظاهر أحيانا كياء المتكلم: (سقاني، حبي، تعطشي، إني، دهري...) والمقدر أحيانا أخرى (أقيم، أهيم، أحن، أفنى...) وهذا الضمير يرتبط أحيانا بالشاعر، ويرتبط أحيانا بالذات الإلهية، في معرض مخاطبة الله تعالى عبده المريد (عبدي، رعايتي، رزقي، إحساني، أحبتي...).

وقد يجتمع ضميرا المتكلم والمخاطب في جملة واحدة (فما قدرتني، شاهدني...) ونجد كذلك ضمير المتكلم الجمع (سكرنا، همنا، غبنا، لنا، ربنا، سرنا...).

والمخاطب الجمع (تمتعوا، تنزهوا، تسألوني...) وكذلك ضمير المفرد الغائب، الحاضر بقوة، خاصة الغائبة التي ارتبطت بالحديث عن الخمرة الإلهية: (تغيبت، تجلت، وصفها، حلت، شكلها، أشغلها، يدركه، تغيب، أشرقت، سكنت، انفلقت...).

كما ترددت في ديوان "سيدي أحمد" مجموعة من الأساليب كالتحذير: (إياك أن تنسى)، و(حذار حذار من فراق أحبتي...) والشرط: (إن أسكرت...تغيبت)، (إن نفذت...فذا ملكوت الله) (من لا يعوم في ذي البحار يموت وهو عطشان...).

والنفي: (لا صبر عن شرب المدام)، (لا قبلها شيء ولا بعدها)، (ليس لها مثل)...

والتعجب (الذي هو استعظام فعل ظاهر المزية) بصيغتيه القياسيتين "ما أفعل" و"أفعل به"، فمن الأولى قول الشاعر:

تحقق بوصف الفقر في كل لحظة   فما أسرع الغنى إذا صحح الفقر[1]

ومن الثانية قوله:

تكون به أهلا كمـــا هو أهلـــه   فاعظم به قدرا من العز والمجـــد[2]

كما يستعمل " ابن عجيبة" صيغا أخرى للتعجب، مثل قوله:

أنا فاني فـــي ذي الجـــــلال   سبحانـــــــــه سبحـــــــــان[3]

---

[1]- الفهرسة، م.س، ص 121.
[2]- نفسه، ص 108.
[3]- نفسه، ص 112.

ثانيا: البنية البلاغية:

× نوعية الجمل:

أول ما يطالعنا في هذه البنية، هو طغيان الجمل الإنشائية على نظيرتها الخبرية". والإنشاء ضربان: طلب وغير طلب، والطلب يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، لامتناع تحصيل الحاصل"[1] ومن أنواعه: الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء... أما غير الطلب فهو ما يستدعي مطلوبا حاصلا، وأنواعه كثيرة منها صيغ المدح والذم والعقود والقسم والتعجب والرجاء... والذي يهتم البليغ بالبحث عنه هو القسم الأول، لأن فيه من المزايا واللطائف ما ليس في القسم الثاني[2] وهو عين ما سنحاول دراسته في ديوان " سيدي أحمد".

× أسلوب الأمر:

الأمر هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء[3]، وقد تردد هذا الأسلوب بكثرة بكثرة في ديوان "ابن عجيبة" وذلك لعدة اعتبارات، منها ارتباط هذا الضرب من الشعر (التصوف) بالمناجاة والتوسل وما يستتبع ذلك من نداء ودعاء:

وصل إله العــرش في كــل لمحــة	على عنصــــــر الوجود سر محمد[4]
يا أول اجعلني في أول ســـــابق	إلى حضرة القدوس في خير مقعد
ويا آخر اختم لي بخير سعـــادة	تضم إلى روح الوصــــــــال المؤبد

[1]- الخطيب القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة"، ص 135، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1/ 1405هـ- 1985م.

[2]- أحمد مصطفى المراغي، " علوم البلاغة"، ص 65، المكتبة المحمودية التجارية/ مصر .

[3]- الخطيب القزويني، "الإيضاح"، م.س، ص 79.

[4]- الفهرسة، م.س، ص 107.

ويا ظاهر حسن ظواهري الــتي بتهذيبها يسري المدد إلى العبــد
ويا باطن زين بتحقيق نعمــة الشهود بواطني بجمــع مؤبــــد[1]

ونجد هذا الأسلوب يتكرر في معرض وصايا الشيخ للمريد:

فيا باحثا عن سر روحه فاستمــع وكن تاليا للأمر في محكم الذكــر[2]
تحقق بوصف الفقر في كل لحظــة فما أسرع الغنى إذا صحح الفقــر[3]
وإن أردت العرفان فافن عن الورى وعن كل مطلوب سوى الحق تظفر[4]

× أسلوب النهي:

"هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء"[5]، وليس له إلا صيغة واحدة هي هي المضارع مع لا الناهية[6]، وقد تردد هذا الأسلوب، كسابقه، في معرض تزويد الشيخ للمريد بقواعد التصوف وآدابه:

فلا ترضـــــى بغيـــر الله حبا وكن أبدا ذا عشـــق واشتيــــاق[7]

وكذلك في معرض تحذير الشيخ للمريد من بعض السلوكات التي قد تزج به خارج عش التربية:

---

[1]- الفهرسة، ص 109.
[2]- نفسه، ص 106
[3]- نفسه، ص 106.
[4]- نفسه، ص 106
[5]- القزويني، "الإيضاح، مرجع سابق، ص 149.
[6]- أحمد مصطفى المراغي، "علوم البلاغة"، م.س82.
[7]- الفهرسة، ص 123.

فلا ترفعن صوتا إذا كان حاضرا ولا تضكن فالضحك فيه فجائع
ولا تعترض أصــلا عليـه فإنــه بنور شهــود للبصيـــرة تابـــع
ولا ترمين عينـــا إلى ماء غيــره فترمى كسيرا في المعاطش ضائــع
ولا تخرجن من عش تربية غدت تمدك بالأنــوار منهـــا تتابـــع[1]

× أسلوب الاستفهام:

"هو طلب فهم شيء لم يتقدم لك علم به"[2]، وقد تخرج ألفاظ هذا الأسلوب عن أصل وضعها، فيستفهم بها عن الشيء،مع العلم به،لأغراض تستفاد من سياق الحديث ودلالة الكلام. ومن بين أغراض الاستفهام لدى شاعرنا:

"الإنكار":

أتبنـــي ما ليـــس لــه تمـــام وتشغـــــل العمـــر بوهم باد؟!
أتتـــرك الراحـــة في التسليـم وتتعـــب الجنـــان بالعنـــاد؟![3]

و"النفي":

هل غارس الأشجار للإثمـــار يهمـــل غرسه بلا إمـــداد؟[4]
كيف بترك الراح والراح راحتي ومنه قوامي في القديم ونشــأتي[5]

---

[1]- الفهرسة، ص 103.
[2]- أحمد مصطفى المراغي، "علوم البلاغة"، م.س 67.
[3]- الفهرسة، ص 120.
[4]- نفسه، ص121.
[5]- نفسه، ص 104.

و"التعجب":

فأعجز كل الخلق بـحر كمـــاله	وكيـــف يحاط البحر بالغرف باليد؟[1]

كما تضمن الديوان جملة من المحسنات اللفظية، كالجناس غير التام:

فلو أن الكون عرشه مع فرشـــه	كؤوس لخمـــر الحب ما أنا قانـع[2]

وجناس الاشتقاق:

سقاني حبي من مدامـة حبـــه	فأصبحت من خمر الهوى أتضلـع[3]
ولي لوعة بالراح إذ فيـــه راحتي	وروحي وريحاني وخيـــره واســـع[4]

كما يميل شاعرنا إلى استعمال المترادفات بكثرة للدلالة على المعنى الواحد: كالخمرة والصهباء والحميا والمدام... علاوة على إكثاره من الطباق والمقابلات المعنوية، كمثل قوله:

وفي حالة الإبعاد والقرب والصفـا	وفي الجفا شاهدني وقلبك خاضع[5]
تواضعـــه ذلا لمــــن لــــه عزة	وصحبته شيخـــا إليه المراجـــع[6]
سكرنا بها قدما وبعد نشــــأتي	وفي النشأة الأخرى تدوم مســرتي[7]
فيا غبن من لم يشف منها غليله	لقد كساه الحرمـــان ثوب مذلـة

[1]- نفسه، ص 107.
[2]- الفهرسة، ص 102.
[3]- نفسه، ص 102.
[4]- نفسه، ص 103.
[5]- نفسه، ص 103.
[6]- نفسه، ص 103.
[7]- نفسه، ص 104.

ويا فوز من أضحى لها متضلعـا على عدد الأنفاس في كل وجهة[1]
فجمعك باطنا يكـون مواصـلا وفرقك ظاهرا بتحقيــق نسبـــة[2]

كما يستخدم الشاعر أسلوب "التكرار":

وإن تردن بسط المواهب عاجلا ففي الفاقة ريــح المواهب ينشــر
وإن تردن عزا منيعـــا مؤبـــدا ففي الذل يخفى العز بل ثم يظهر
وإن تردن رفعا لقــــدرك عاليا ففي وضعك النفس الدنية يحضر[3]

وكذلك في قوله: (يا عبدي... يا عبدي؛ أنا الذي... أنا الذي...)[4]

وقد توسل شاعرنا بمجموعة من الأساليب البيانية كالتشبيه:
(الكون عرشه مع فرشه كؤوس لخمر الحب...)[5].

و"التشبيه البليغ":

فأشباحنـا كأس وأرواحنـا خمر وساق لها جذب العناية حفت[6]

و"المجاز":

... أمان من كل هول للظهر قاطع[1]

---

[1]– نفسه، ص 104.
[2]- نفسه، ص 104.
[3]- الفهرسة، ص 121.
[4]- نفسه، ص 121.
[5]- نفسه، ص 102.
[6]- نفسه، ص 104.

ألا إن شمس الحس تغرب ليلها　　　وليس لشمس الحق من أفل يجري[2]

وفي أبحر من الحقائق زج بي[3]

والاستعارة:

حياء وهيبـــة وتعظيـــم نعمـــة　　　ومســـك لسان القول إنه راتع

وإن جنك ليل من القبض حالك　　　فهي لـــه صبرا فضـــوؤه تابـع[4]

تلاشت فهوم الخلق في بحر سـره[5]

رياض بساتين المعـارف بهجـت　　　بزهـــر جمال من شريعـة أحمد[6]

ولعل أهم ما يميز شعر " سيدي احمد" والشعر الصوفي عامة، هو استعمال الرمز، فالخمرة مثلا رمز للحب الإلهي...[7] .

ومن أهم مكونات الخطاب الشعري الحاضرة بقوة لدى شاعرنا نجد: الاقتباس "وهو ظاهرة بديعية في أشعار الفقهاء، تتضمن نصا من القرآن أو الحديث، أو شيئا من العلوم الإسلامية، مما تحفظه ذاكرتهم، وتبرز هذه الثقافة الدينية في إبداعهم لما لها من حضور مؤثر في شخصياتهم، ولأنها تشكل أصلا معرفيا يستمدون منه تصورهم للكون والذات" [8] .

---

[1]- نفسه، ص 103.

[2]- نفسه، ص 104.

[3]- نفسه، ص 108.

[4]- الفهرسة، ص 103.

[5]- نفسه، ص 107.

[6]- نفسه، ص 107.

[7]- انظر الحب الإلهي (أو التلويحات الخمرية)، ص21-26 من هذا البحث.

[8]- د. عبد الله بنصر العلوي: "أبو سالم العياشي: المتصوف الأديب"، ص 472- 473، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1419هـ- 1998م..

ولا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة من شعر "سيدي أحمد من الاقتباس وبخاصة الاقتباس الإشاري[1]:

فعسى أن تكـــره خيرا يـــأتي　　　　وعســـى أن تحب ما يعـــادي[2]

وفيه إشارة إلى قوله عز وجل: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾[3].

وكذلك في قول "سيدي أحمد": (طويل):

لقد خصنا الإلـــه معشـــر أمة　　　　بأشـــرف عز من كرامـــة أحمـد

رســـولا كريما هينـــا متبجـــلا　　　　حميدا عظيمـــا في السيادة والمجد[4]

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [5].

وفي قول شاعرنا: (طويل):

ونكـــرع منها من موارد فضلكم　　　　ونـــروى من التسنيم أعظم مورد[1]

1– هو استلهام لنص قرآني أو حديثي يشير الشاعر في احد أبياته إلى مضمون هذا النص، وهناك الاقتباس النصي وهو استقاء لنص من القرآن أو الحديث بشكل حرفي، والاقتباس التوجيهي وهو ما أشار فيه الشاعر إلى قاعدة مشهورة من العلوم العقلية والنقلية من غير القرآن والحديث، (انظر: د. عبد الله بنصر العلوي، أبو سالم العياشي، م.س، ص 472-480) وسنركز على النوع الأول من الاقتباس لهيمنته في شعر "ابن عجيبة".

2– الفهرسة ،م.س، ص 120.

3– سورة البقرة، الآية: 214.

4– الفهرسة، ص 108.

5– سورة التوبة، الآية: 129.

إشارة إلى قوله عز من قائل: ﴿ومزاجه من تسنيم، عينا يشرب بها المقربون﴾[2].

وفي قول "ابن عجيبة": (طويل):

على نهجه احملني لحضرتك التي   إليها يأوي اولو البصائر والأيـد[3]

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾[4].

وفي قول "سيدي أحمد" (طويل):

على الباطل اقذف بي فندمغ كل ما   يزاد على الفرد العلي من الضد[5]

اقتباس من قول المولى سبحانه: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[6].

وفي قول الشاعر:

هو الأول والآخر مـــع ظاهـــر   وباطن كل شيء في وحدة الفرد[7]

اقتباس من قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم﴾[8].

---

[1]- الفهرسة، ص 108.

[2]- سورة المطففين، الآية: 27-28.

[3]- الفهرسة، ص 108.

[4]- سورة ص، الآية: 44.

[5]- الفهرسة، ص 108.

[6]- سورة الأنبياء، الآية: 18.

[7]- الفهرسة، ص 108.

[8]- سورة الحديد، الآية: 3.

وكذلك في قول "ابن عجيبة": (طويل):

فمـــن فرض القرآن أخبر أنــه يـــردك يا روحي لجمع مؤبـــــد[1]

اقتباس من قوله عز وجل: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[2].

نستشف، إذا، عمق ثقافة "ابن عجيبة" الإسلامية، فهو ينظم أشعاره مستلهما محفوظه القرآني بطريقة متميزة، وأرى في هذا تفردا وتميزا للشاعر المغربي الذي طالما نعت إبداعه بأنه شعر فقهاء وحبذا لو جمع هؤلاء اللامزون في شعرهم جزءا يسيرا من هذه الثقافة التي تدل على عمق تكوين الشاعر المغربي وسعة اطلاعه...

أما فيما يخص المجال الشعري، فنجد أثر "ابن الفارض" واضحا جليا في شعر "سيدي أحمد"، يتجلى ذلك في صور من المعارضات التي حذا فيها شاعرنا حذو "سلطان العاشقين" سواء على مستوى المضمون أم الشكل، فـ "ابن عجيبة" نظم تائيته في الخمرة الأزلية مستلهما مضامين "التائية الكبرى" (المسماة نظم السلوك) وخصائصها الفنية (على مستوى المعجم والوزن...إلخ) يقول "ابن الفارض" في مطلع تائيته: (طويل):

سقتني حميـا الحب راحة مقلـتي وكأسي محيا من عن الحسن جلت[3]

ويقول "ابن عجيبة": (طويل):

احن إلى خـــان الحميـــا لنشوة تطيش لها الألباب في حال سكرتي[4]

---

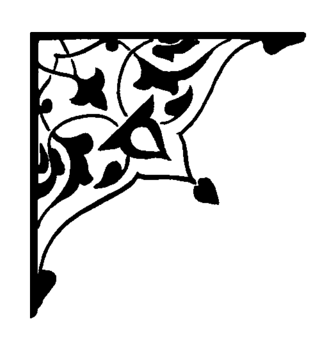
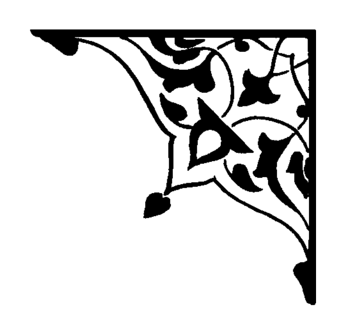
[1]- الفهرسة، ص 109.

[2]- سورة القصص، الآية: 85.

[3]- انظر: التائية الكبرى في ديوان ابن الفارض، م.س، من ص 46 إلى 116.

[4]- الفهرسة، م.س، ص 104 – 105.

وهكذا يمضي "سيدي أحمد" في جملة من قصائده يردد ما قاله "سلطان العاشقين" ويبني أشعاره على منوال أشعار "ابن الفارض" ولابدع في ذلك، ما دام "ابن الفارض" قد ظل هو الإطار المرجعي لشعراء التصوف في المشرق والمغرب معا... على أن هذا لا يعني نفي صفة "التميز" عن شاعرنا، فذاتية إبداعه حاضرة، وتناوله الخاص لمعاني التصوف قائم، وتفاعل شعره بواقعه ملحوظ، وهو ما يسمه بسمة التفرد ويضفي عليه نوعا من الخصوصية...

الفصل الرابع:

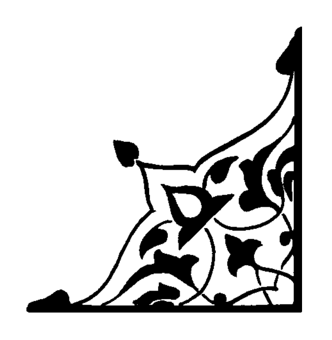
البنية الإيقاعية

أولا: تعريف الإيقاع وخصائصه

ثانيا: الوزن الشعري

ثالثا: القافية

رابعا: حرف الروي

أولا: تعريف الإيقاع وخصائصه:

يذهب بعض الدارسين إلى حصر الإيقاع، في مجال الشعر، انطلاقا من مفهومهم للوزن الشعري (البحر العروضي) والقافية؛ والواقع إن الإيقاع في الشعر أوسع بكثير من ذلك وأرحب، إذ يتوالد وينمو ويكبر انطلاقا من اجتماع عدد غير يسير من العناصر وانسجامها بارتباط مع لغة الشعر، ولعل من أهم هذه العناصر:

- التركيب اللغوي حين ينتظم في أنساق من الموازنات والتقطيعات.
- التكرار وفق أشكال موظفة لتأدية دلالتها.
- التوزيع والتقسيم على مستوى جسم القصيدة، وبهدف دلالي محدد معروف.
- التوقيع على جرس بعض المفردات/ الألفاظ والموازاة بينها وبين الأصوات التي تشكلها.
- الصيغ الصرفية من محورها الاستبدالي بين المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث.
- الوزن الشعري (البحر العروضي).
- القافية باعتبارها عنصرا لغويا / إيقاعيا متكررا.
- النبر والتنغيم[1].

إن الذي يميز الإيقاع عن سائر عناصر الشعر الأخرى، كونه العنصر الذي يحمل بالإضافة إلى قيمته النغمية/ الموسيقية، قيمة دلالية حين يتشكل داخل التجربة الشعرية، ويدخل في انسجام تام مع العناصر الأخرى المعجمية، التركيبية والبلاغية. وليس للإيقاع،

---

[1]- انظر: "تحليل النص الشعري" لمصطفى السلاوي، ضمن مجلة "الجامعة" (كلية الآداب- وجدة)، ص 7، العدد 22، يناير 1992.

وزنا وأصواتا وتكرارا وقافية، أية دلالة خارج الكون الشعري في اكتماله وانسجامه. وينشأ الإيقاع "من تكرار ظاهرة صوتية على مسافات معينة مغايرة للظواهر الصوتية الأخرى في النص، وهو ينشأ غالبا من تفاعل عنصرين متمايزين، لكن شرط الإيقاع الجوهري هو انعدام الانتظام المطلق، أي وجود فجوة– مسافة توتر– بين المكونات الإيقاعية..."[1].

إن الحديث عن تحليل للمستوى الإيقاعي في الشعر، يجرنا إلى التمييز بين مستويين اثنين متكاملين متداخلين[*]:

أ– مستوى الوزن الشعري والقافية.

ب–مستوى اللغة الشعرية وما تطفح به من عناصر تدخل في تشكيل النسيج الإيقاعي، كإيقاع المفردة، وإيقاع الجملة، وجرس الأصوات، والصيغ الصرفية[2].

وسنحاول الوقوف عند هذه المستويات في ديوان "ابن عجيبة" وتجليتها.

---

[1]– كمال أبو ديب، "في الشعرية"، ص 52، طبعة مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1987.

[*]– ليست عناصر الإيقاع (جزءا) مفروضا يأتي من الخارج و (جزءا) آخر تلقائيا يأتي من الداخل، بل هي كل لا يقبل التفتيت والتجزيء، وإنما اتبعت هذا التقسيم لغرض دراسي منهجي فحسب.

[2]– "تحليل النص الشعري" لمصطفى السلاوي، م.س، ص 8.

ثانيا: الوزن الشعري:

ما المقصود بالوزن الشعري؟ وما هي مكوناته؟ وما طبيعة الوظيفة التي ينهض بها داخل النص الشعري؟ ثم هل من المناسب أن نتحدث عن وزن شعري دال في ذاته؟ أسئلة كثيرة تستوقفنا قبل مباشرة تفكيك هذا الوزن في شعر "سيدي أحمد".

ونشير، بداية، إلى أن هناك فرقا واسعا بين قول شاعرنا:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وقوله:

أحـن إلى خان الحميـا لنشـــوة   تطيش لها الألباب في حال سكرتي

فالصورة الأولى لبحر الطويل صورة عروضية علمية مجردة، تهدف إلى تحقيق التكيف النفسي مع هذا البحر، ليصبح بالإمكان صوغ الكلام الأدبي صياغة موزونة من غير عنت أو تكلف، أما الصورة الثانية فهي الصورة المتحققة بالفعل لوزن الطويل، والتي أنتجتها الممارسة وصقلتها الدربة وكستها الأصوات والألفاظ والجمل والمعاني، والمقصود عندنا في تحليل البنية الإيقاعية هو هذه الصورة الثانية التي تجسد فيها البحر العروضي معانقا للكلمة/ اللغة الشعرية مزاوجا لها، ولا شأن لنا بالصورة الأولى المجردة الثابتة التي لا تقبل التغير والتحول.

وقد تنبه نقادنا القدامى إلى وجود علاقة بين الوزن والمضمون أو الغرض الشعري، فهذا حازم القرطاجني يرى أنه "لما كانت أغراض الشعر شتى، وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم، وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان الفخمة الباهية

الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير شيء أو العبث به، حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل مقصد"[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه، ونحن في معرض الدراسة الإيقاعية لشعر "أحمد بن عجيبة"، هو "كيف اشتغل الوزن مع عناصر اللغة في هذا الشعر؟

لعل أول ما يطالعنا على صعيد الوزن في الديوان،هو هيمنة وزن الطويل

فعولن مفاعيلن فعلون مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعلون مفاعيلن

أحيانا بقبض[*] الضرب (مفاعلن) وأحيانا باستعمال الضرب الصحيح (مفاعيلن) وإذا أردنا أن نستقصي الأوزان في ديوان "ابن عجيبة" لوجدنا أن ثماني قصائد من الطوال على وزن الطويل (من أصل ثماني عشرة قصيدة) أي حوالي مائتي بيت (200) من أصل (400) بيت، بمعنى أن نصف أشعار الديوان من وزن الطويل.

ونتساءل: هل بإمكان "الطويل" باعتباره وزنا شعريا قابلا للتحقق في أحضان اللغة الشعرية، أن يخلق لنا دلالة تدل على الغرض أو المقصد الذي يروم الشاعر بلوغه؟

وجب أن نعرف أولا أن أمر إنتاج الدلالة في القصيدة الشعرية ليس أمرا مقصودا على البحر العروضي، بالنظر إلى أن دلالات الشعر لا تنتج بشكل انفرادي يحققها البحر العروضي أو عنصر القافية أو التكرار أو جرس الأصوات؛ إنما تنتج الدلالة انطلاقا من تمازج

---

[1]– حازم القرطاجني، "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص 266، دار الغرب، بيروت، ط2، 1981.

[*]– القبض هو حذف الخامس الساكن في مفاعيلن فتصير مفاعلن، انظر: "ميزان الذهب في صناعة شعر العرب" للسيد أحمد الهاشمي، ص 14، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 2، 1415هـ – 1995، بيروت– لبنان.

كافة تلك العناصر وانسجامها، فالبحر العروضي، من هذا المنظور، دال حين يدخل في انسجام تام مع عناصره التي تكسوه من أصوات وجمل وتراكيب وصور شعرية.

يقول "إبراهيم أنيس": "نستطيع، ونحن مطمئنون، أن نقرر أن الشاعر في حالة البأس يتخير عادة وزنا طويلا، كثير المقاطع، يصب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزعه، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع، تأثر بالانفعال النفسي، وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس وازدياد النبضات القلبية"[1].

ويرى "عبد الله الطيب" أن الطويل رغم أبهته وجلاله "فاتر الموسيقى لامتداد نفسه وخفاء جرسه"[2]، فما مدى صحة ذلك في شعر "أحمد بن عجيبة" خاصة وأن الطويل هو الوزن المهيمن فيه؟ للإجابة عن هذا السؤال ، لابد من الوقوف أولا عند نوعية المقاطع الشعرية في ديوان شاعرنا؛ فإذا قمنا بتقطيع نموذجين مختلفين من الطويل في شعره:

النموذج 1:

سقـــاني حبيـــبي من مدامـــة حبـــه	فأصبحـــت من خمـــر الهـــوى أتضلع
// 0/0 //0/0 /0 //0// /0//0	//0/0 //0/0/0 //0/ //0//0

النموذج 2:

وصـــل إله العـــرش في كـــل لمحـــة	على عنصـــر الوجـــود سر محمـــد
// 0/ //0/0 /0/ /0/0 //0//0	//0/0 //0//0/ /0/ //0//0

---

[1]- إبراهيم أنيس، "موسيقى الشعر"، ص 177، مكتبة الأنجلو مصرية 1972.

[2]- عبد الله الطيب، "المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها"، ص 362/1- 363، دار الفكر، بيروت، الطبعة 2، 1970.

فأين المقطع القصير من المتوسط؟

أما المقطع القصير، فما قام من حرف متحرك مثل: ك، ر، د...في حين يتكون المقطع المتوسط من متحرك وساكن وهو نوعان:

مفتوح، مثل: ما، في ....

مغلق، مثل: من، تن...

إن مقاطع النموذجين السابقين تظهر كالآتي:

النموذج 1:

س / قا / ني/ ح/ بي/بي/ من/ م / دا / م / ت /حب / ب / هي

م م م م م م م[1]

ف / أص / بح / ت / من / خم / رل / ه / وى / أ / ت / ضل /ل/ عو

م م م م م م م م

النموذج 2:

و /صل / ل / إ / لا / هل / عر / ش / في / كل / ل / لم / ح / تن

م م م م م م م م م

ع / لى / سر / رل / و / جو / د / سر / ر / م / حم / م / دي

م م م م م م م

[1]– م: مقطع متوسط.

نخلص إلى أن:

– عدد المقاطع المتوسطة (مفتوحة ومغلقة) في جسم الديوان أكثر من عدد المقاطع القصيرة.

– وإذا علمنا أن زمن النطق بالمقطع المتوسط هو ضعف زمن النطق بالمقطع القصير، أدركنا أن الإيقاع العام في المتن المدروس يميل إلى البطء وطول النفس، وهو ما يؤكد فرضية د. عبد الله الطيب السالفة... وإذا ربطنا هذه النتيجة بالغرض المهيمن في شعر "ابن عجيبة" (أي التصوف) وما يرتبط به من حالات الوجد والجوى والتوسل والمناجاة... أدركنا الصلة الوثيقة بين هذه الحالات النفسية وخاصية البطء والتريث في إلقاء الكلام... بل إن نزعة الشعر في ديوان "سيدي أحمد" هي نزعة "خطابية" تجنح إلى التكثيف من التكرارات والمزاوجات والتقابلات المعنوية...ولعل هذا ما سبق أن أشرنا إليه حين قلنا: إن الوزن/ البحر لا يكون دالا إلا في حال انسجامه مع عناصر اللغة الشعرية الأخرى...

ولعل توق "ابن عجيبة" إلى تكرار معاني الوجد والمجاهدات والتوسل في كل قصائده، وسم شعره بنمط إيقاعي يكاد أن يكون موحدا.

ثالثا: القافية:

اعتاد الدارسون، وهم يتحدثون عن القافية، أن يصفوها باعتبارها مكونا إيقاعيا يبتدئ من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن[1] او يصفوا القافية انطلاقا من الحرف الذي تبنى عليه القصيدة أو ما يعرف بالروي. وسنتناول، نحن، بالدرس كلا العنصرين من حيث وظيفتهما داخل جسد القصيدة، ومن حيث إمكانية توليدهما عنصر الدلالة بالالتحام مع عناصر الشعر الأخرى.

وقد وردت القافية في ديوان "ابن عجيبة" على النحو الآتي:

نوع القافية	ترتيب القصائد في الديوان	العدد الإجمالي
المتواتر	4،8،10،11،12،13،14،15،16،17،18	11 قصيدة
المتدارك	1،2،3،5،9	5 قصائد
المترادف	6،7	2 قصيدتان

يلاحظ، إذا، هيمنة قافية "المتواتر" التي وردت في 11 قصيدة، متبوعة بقافية "المتدارك" الواردة في 5 قصائد، ثم قافية "المترادف" الواردة في قصيدتين، فيما غابت قافيتا المتكاوس والمتراكب...

[1]– انظر: الأخفش: "كتاب القوافي"، ص 8، تحقيق: أحمد راتب النفاح، 1974، دار الأمانة، بيروت، وانظر كذلك: " ابن رشيق القيرواني"، "العمدة"، ج 151/1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثية، البيضاء.

وباعتبار التقسيم الذي يجعل القافية تبتدئ من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن، أمكننا تسجيل اعتماد "ابن عجيبة" في عدد غير يسير من أبياته على قوافي/ كلمات: سكرتي: (/0//0)؛ قبضة (/0//0)؛ حال (/0/0)؛ الفقر (/0/0)؛ الحق (/0/0)؛ الدهر (/0/0)...

وبما أننا سجلنا أن قافية "المتواتر" هي الأكثر ورودا في أشعار "ابن عجيبة"، فسنمثل لها، قصد الدراسة، بالنموذج الآتي:

فيا باحثا عن ســـر روحــه فاستمـــع وكـــن تاليا للأمر في محكـــــم الذكر[1]

0// 0/// 0// 0/ 0/0// 0/ 0// 0/0/0// 0/0/ /0/0/ 0//0/ 0//

مفاعيلن

فالذي يهمنا من دراسة القافية النظر في الجزء الأخير من الشطر الثاني (مفاعيلن)؛ والقافية في (مفاعيلن) تكمن أساسا في (كم الذكر)، وهي مطلقة من نوع المتواتر.

أما تكوينها المقطعي، فيدل على البطء، بالنظر إلى توالي ثلاثة مقاطع متوسطة /0 + /0 + /0 : المقطعان 1 و2 مغلقان (مذ) + (ذك) والمقطع الثالث مفتوح (ري). ومثل هذا يجعلنا نطمئن إلى نتيجة أولية مؤداها أن "أحمد بن عجيبة" كان يستجمع أنفاسه ويلم شتات معانيه الصوفية المتدفقة في آخر كل بيت. أما الجملة فمتواصلة حتى بعد نهاية البيت، ولا شأن لكلمة القافية في إنهائها. نقول هذا انطلاقا من الوقفة المتباطئة التي تسجلها القافية بمقاطعها المتوسطة التي تكلف الشاعر زمنا من النطق طويلا، فيه كثير من التريث والهدوء؛

---

[1]– انظر: الفهرسة،م.س، ص 106.

إنه الهدوء الذي يؤذن بانطلاق واندفاع جديدين، سيكون مسرحهما البيت الموالي... وقس على ذلك أبياتا عديدة في الديوان.

وعلاوة على هذا التمهل والوقوف عند آخر كل بيت*، نجد صورة (مفاعيلن)المتكررة في الضرب على مستوى جميع القصيدة من الصور التي أسهمت في إبطاء الإيقاع؛ إنها تتكون من مقطع قصير (م) وثلاث مقاطع متوسطة (فا)، (عي)، (لن) وهذا يزيد في تأكيد وقفة التريث عند الشاعر.

ونقف، بعد هذا للحديث عن المعجم الذي ارتبط بصورة (مفاعيلن): لعل من أهم هذه المفردات/ الكلمات التي عملت القافية على إبرازها: الذكر، يسري، الدري، يجري، التبر، الأمر، البحر، السر، الجهر، الغير، الكبر، الزجر، الفكر، النصر، الفقر...

وهي كلمات، كما نلاحظ تحمل شحنات مهمة داخل الحقل الشعري الصوفي، وهي محملة بمدلولات لها حضورها القوي في عالم التصوف والمتصوفة (الذكر، الفقر، الفكر،...) ولعل هذه الدلالات التي حملتها القوافي شكلت "شعرية الإيقاع" في إبداع "سيدي أحمد".

*– نحن هنا بصدد النموذج المقترح من القصيدة الرائية المشار إليها آنفا.

رابعا: حرف الروي:

هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وسندرسه من المنظور اللساني الحديث بالنظر إلى مخرجه وصفاته وبارتباط مع مفهوم إدراك الكلام من خلال تجميع الدلائل السمعية واللغوية والمعنوية[1] .

وقد وردت أحرف الروي في شعر "ابن عجيبة" على الشكل الاتي:

الحرف	ترتيب القصائد في الديوان	العدد الإجمالي
الباء	8، 17	2
التاء	2،3	2
الدال	5، 10	2
الراء	4، 11، 13	3
الصاد	9	1
العين	1	1
القاف	12، 15	2
اللام	16	1
النون	7، 14	2
الهاء	18	1

[1]– انظر: "المنظومة الكلامية"، ص 186، تأليف: د. بيترب. دنيس/ د. إليوت بنشن، ترجمة: د. محيي الدين حميدي، معهد الإنماء العربي، الجماهيرية العربية الليبية، 1991.

وهذه الحروف تتوزع من حيث مخارجها وصفاتها كالآتي:

*الباء: شفوي لثوي مهموس غير مفخم.

* التاء: أسناني لثوي مهموس غير مفخم.

* الدال: أسناني لثوي مجهور غير مفخم .

* الراء: لثوي تكراري مجهور.

* الضاد: أسناني لثوي مجهور غير مفخم.

* العين: حلقي مجهور غير مفخم.

* القاف: لهوي مهموس غير مفخم.

*اللام: لثوي جانبي مجهور.

* النون: أنفي مجهور.

*الهاء: حنجري مجهور غير مفخم.

يلاحظ أن حرف الراء قد تردد في ثلاث قصائد[1]، وهذا الحرف "من الأصوات اللثوية التي ينطق بها بترك اللسان مسترخيا في طريق الهواء الخارج من الرئتين فيرفرف اللسان ويضرب طرفه في اللثة ضربات مكررة، وهذا معنى التكرار في صفته"[2].

وصوت الراء، من جهة صفاته، من الأصوات المتوسطة، تكراري مجهور، قال عنه "تمام حسان": "ولهذا الصوت حالات فيما يختص بالتفخيم باختلاف موقعه من السياق، فهو

[1]– القصيدة الأولى هي القصيدة 4 (انظر الفهرسة من ص 106إلى ص 107)، القصيدة الثانية هي القصيدة 11 في الديوان (انظر الفهرسة ص 121–122)، القصيدة الثالثة هي القصيدة 13 في الديوان (انظر الفهرسة ص 123.).

[2]– مصطفى السلاوي، "تحليل النص الشعري"، م.س، ص 10، نقلا عن :

J.Contineau (cours de phonétique arabe).

مرقق إذا ما تلاه صوت من أصوات الكسرة، أو وقع ساكنا بعد هذا الصوت، ومفخم فيما عدا ذلك"[1].

والملاحظ أن صوت الراء، باعتباره حرف الروي، في القصائد الثلاث آنفة الذكر، جاء مرققا في القصيدة الرابعة والقصيدة الثالثة عشرة، بينما ورد مفخما في القصيدة الحادية عشرة:

مطلع القصيدة 4: فيا باحثا عن سر روحه فاستمع ** وكن تاليا للأمــر في محكم الذكــر

مطلع القصيدة 13: إذا صحبت عبدا عناية ربه ** تخلص من رق الحظوظ مدى الدهر

} ترقيق

مطلع القصيدة11: تحقق بوصف الفقر في كل لحظة ** فما أسرع الغنى إذا صحــح الفقــر } تفخيم

إن ميل "ابن عجيبة" إلى ترقيق حرف الراء مرده إلى اتجاهه الصوفي الذي يعكس رقة أحاسيسه وليونة مشاعره، كيف لا وهو في مقام المناجاة والتوسل الذي يقتضي الاستسلام التام والخضوع الكامل والتذلل للملك الديان، وإظهار الضعف والانكسار في حضرته... !

وبهذا نكون قد وقفنا، إلى حد ما، عند خصوصيات الإيقاع داخل المتن الشعري الصوفي عند "سيدي أحمد"، إيقاع بلوره الوزن الشعري، والقافية وحرف الروي بانسجام وتناغم مع العناصر اللغوية والتركيبية التي طفح بها الديوان الشعري المدروس.

---

[1]- تمام حسان، "مناهج البحث في اللغة"، ص 132، دار الثقافة، البيضاء، 1407هـ - 1986م.

خــاتمــة:

وبعد، فلقد أتاح لنا الاحتكاك بالمتن الشعري "العجيبي" من خلال ملامسة مقوماته الموضوعية والفنية تسجيل الملاحظات الآتية:

1- إن شعر التصوف المغربي خلال الفترة المدروسة (ق 13هـ/ 18م)، ممثلا في نموذج "ابن عجيبة" ظل خاضعا للتصور السني البعيد عن مغالاة الفلسفة الإشراقية...

2- احتذى هذا اللون الشعري حذو مثيله في المشرق؛ حيث وجدنا فيه طابع ابن الفارض واضحا جليا من خلال طرق مواضيع واحدة التصور وموحدة الرؤيا كالحب الإلهي (التلويحات الخمرية)، الحقيقة المحمدية، التوسل... مع تميز المتن الشعري المغربي بتركيز اهتمامه على مدح أشياخ التصوف وبيان سالكي الطريق، وذلك بشكل فاق فيه نظيره المشرقي.

3- استجابت توسلات شاعرنا لواقع ذاته وواقع عصره، خصوصا أمام المضايقات التي تعرضت لها الدعوة الدرقاوية، فحاول "سيدي أحمد" التخفيف من غلواء هذا الواقع دون أن يهرب منه، إذ كانت غايته، أولا وأخيرا، ممارسة "المجاهدات" دون تقييد أو تضييق.

4- تميز المتن الشعري "العجيبي" بخلوه من التلويحات الغزلية، ولربما شكل شاعرنا الاستثناء بين شعراء التصوف في المشرق والمغرب، حيث لم تتردد في ديوانه، ولو على سبيل التلميح، "ليلى" أو "سلمى"، وهذه نقطة تحتاج إلى نوع من البحث ومزيد من الدراسة لكشف أسرارها، خاصة وأن جل شعراء التصوف قد تناولوا، تصريحا وتلميحا، العنصر الغزلي وضمنوه أشعارهم وتكفينا الإشارة على سبيل المثال لا الحصر، إلى "ابن عربي" و"ابن الفارض" في المشرق، وتلميذ شاعرنا "محمد الحراق" في المغرب.

5- عمق الثقافة الإسلامية ومتانة التكوين الفقهي لدى شاعرنا، يتجلى ذلك في حسن توظيف محفوظه القرآني والحديثي وتضمينه في إبداعه. ولعل في هذا تفردا للشاعر

المغربي وتميزا بز فيه نظيره المشرقي، وهو إبطال، في الوقت ذاته، لتلك الدعاوى المغرضة التي وسمت الشعر المغربي بأنه شعر فقهاء؛ وحبذا لو استطاع هؤلاء اللامزون تحصيل جزء يسير من مكونات الشاعر المغربي الثقافية والفكرية...

6- إن مقاربة المتن الشعري المغربي وتحليله وفق رؤية المناهج الأدبية واللغوية المعاصرة، كفيلان برصد الخصوصيات الموضوعية والفنية التي يزخر بها هذا المتن رصدا متميزا وموضوعيا بما لا يدع مجالا أمام مزايدات المشككين وأراجيف المتوهمين وهي دعوة نوجهها إلى كل من استبد به هوى البحث في الأدب المغربي عبر عصوره المختلفة، لإثبات مزيد من سمات التفرد والتميز التي تطبع هذا الأدب.

فيا رب آت مـن لدنك برحمـــة تعـــم الأنام في مغيب ومشهــد

وصل وسلم دائمـــا متواصـــــلا على نخبـــة الأكوان ســـر محمد

مع الرضى عن كل الصحابة جملة ومن هو بالنـــور المحمدي مقتـد

ابن عجيبة

فهرس المصادر والمراجع:

الرقم	المرجع
1	القرآن الكريم
2	1- "اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي"، علي الخطيب، دار المعارف، 1404هـ.
3	"أحمد زروق والزروقية"، علي فهمي خشيم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة- ليبيا 1975.
4	1- "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، د. عباس الجراري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط.
5	1- "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، د. عباس الجراري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط.
6	"الأدب في التراث الصوفي"، عبد المنعم خفاجي، دار المسيرة، بيروت 1980.
7	"أزهار الرياض في أخبار عياض"، أحمد المقري التلمساني، تحقيق: د. عبد السلام الهراس واحمد سعيد أعراب، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المغرب- الإمارات العربية المتحدة، الرباط.
8	"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الدار البيضاء 1954.

9	1- "إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنيين 18- 19م"، أحمد بن عجيبة ومحمد الحراق، للدكتور عبد المجيد الصغير، دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة 2 1415هـ 1994م.
10	"الأعلام":قاموس تراجم"، الزركلي خير الدين،دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 4، 1979.
11	"الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع"، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1405هـ / 1985م.
12	"بحوث في التصوف المغربي" د. حسن جلاب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1 / 1995.
13	"بردة المديح المباركة"، محمد البوصيري، الدار العالمية، بيروت- لبنان 1993.
14	"التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول"، الشيخ منصور علي ناصف، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، لبنان ، 1382هـ/ 1962م.
15	"تاريخ تطوان"، محمد داود، المطبعة المهدية، 1966.
16	"تحليل الخطاب الشعري"، د. محمد مفتاح، دار التنوير، لبنان، ط1، 1985.
17	"التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي"، لأبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي (ابن الزيات) ت 617هـ، تحقيق: أحمد التوفيق.
18	"التصور والتصديق"، أحمد بن الصديق، مطبعة السعادة، مصر 1366هـ.
19	"التصوف الإسلامي في الدين والأخلاق"، زكي المبارك، دار الكتاب، مصر، 1954.
20	"الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية"، د. محمد الأخضر، دار الرشاد، البيضاء.

21	"دليل مؤرخ المغرب الأقصى"، عبد السلام بن سودة، دار الكتاب، البضاء، ط2، 1965.
22	"الدولة المرابطية: قضايا وظواهر أدبية"، د. حسن جلاب، ط1، مراكش، 1997.
23	"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد عبد الملك المراكشي، ج 250/2، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984.
24	"رسائل أبي الحسن علي اليوسي"، جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة 1981، البيضاء.
25	"رسائل مولاي العربي الدرقاوي"، تحقيق: بسام محمد بارود، ط1/1999، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
26	"الرسالة القشيرية في علم التصوف"، عبد الكريم القشيري النيسابوري (ت 465هـ)/ تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1424هـ/ 2003م.
27	"سلوة الأنفاس في محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس"، محمد بن جعفر الكتاني، طبعة حجرية، فاس 1316هـ /1898م.
28	"السنن"، محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجة)، حقق نصوصه وعلق عليها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
29	"شرح تائية البوزيدي في الخمرة الأزلية"، لأبي العباس أحمد بن عجيبة، تحقيق: الثابت بنسليمان عبد الباري، ط1، دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء، 1418هت/ 1998م.
30	"شرح صلاة القطب بن مشيش" سلسلات نورانية فريدة، لأحمد بن عجيبة، جمع وتقديم: العمراني الخالدي عبد السلام، ط1، 1420هـ/ 1999م، دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء.
31	"شعر عمر بن الفارض: دراسة في فن الشعر الصوفي"، د. عاطف جودت نصر، ط1، دار الأندلس 1986.

32	"الطواسين"، أبو الغيث بن منصور (الحلاج)، تحقيق: ماسينيون، مكتبة المثنى، بغداد.
33	"علوم البلاغة"، أحمد مصطفى المراغي، المكتبة المحمودية التجارية، مصر.
34	"العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، أبو الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء.
35	"الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية"، لأحمد بن عجيبة، طبعة1. 1420هـ /2000م، منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان.
36	"فن الشعر الخمري وتطوره في الأدب العربي"، إليا حاوي، منشورات دار الشرق الجديدة، بيروت، ط1، 1960.
37	"في الشعرية"، كمال أبو ديب، طبعة مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1987.
38	"الفهرسة"، أحمد بن عجيبة، ط1/1990، تحقيق وتقديم وتعليق: الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، دار الغد العربي، القاهرة.
39	"الفهرسة الصغرى والكبرى"، لأبي عبد الله محمد التاودي بن سودة (ت 1209هـ)، دراسة وتحقيق: الأستاذ عبد المجيد خيالي، منشورات علي بيضون، ط1/1423هـ - 2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
40	"فهرس الفهارس"، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المطبعة الجديدة، ط2، فاس 1982، باعتناء د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
41	"القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"، الحسن اليوسي، تحقيق وتقديم وتعليق: حميد حماني، مطبعة شالة، الرباط، ط1/1988.
42	"القصيدة الهمزية"، محمد البوصيري، منشورات الدار العالمية، بيروت- لبنان 1993.
43	"كتاب القوافي"، للأخفش، تحقيق: أحمد راتب النفاح، 1974، دار الأمانة، بيروت.

44	"لسان العرب"، ابن منظور الإفريق المصري، دار صادر، بيروت، لبنان.
45	"اللمع"، للسراج الطوسي، تحقيق:د. عبد الحليم محمود- طه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1998.
46	"المجموعة النبهانية في المدائح النبوية"، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1996.
47	"المطرب بمشاهير أولياء المغرب.عبد الله التليدي، ط4، دار البشائر الإسلامية 1424هـ/2003م.
48	"مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي"، د. حسن جلاب، مراكش، ط1، 1994.
49	"معجم المؤلفين"، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي، دمشق، 1957.
50	"معجم المطبوعات العربية والمعربة"، مطبعة سركيس، مصر، 1928.
51	"معراج التشوف إلى حقائق التصوف"، للعارف بالله أبي العباس سيدي أحمد بن عجيبة، ضمن "شرح صلاة القطب بن مشيش، سلسلات نورانية فريدة، جمع وتقديم: العمراني الخالدي عبد السلام، ط1، 1420هـ/ 1999م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.
52	"المغرب عبر التاريخ"، إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، البيضاء.
53	"المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها"، د. عبد الله الطيب، ط2، 1970، دار الفكر، بيروت.
54	"مناهج البحث في اللغة"، تمام حسان، دار الثقافة، البيضاء 1407هـ /1986م.
55	"منهاج البلغاء وسراج الأدباء"ن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب، بيروت، 1981.

56	"موسيقى الشعر"، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو- مصرية، 1972.
57	"ميزان الذهب في صناعة شعر العرب"، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط2، بيروت، لبنان، 1415هـ/ 1995م.
58	"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، تأليف الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1388هـ/ 1968م.

1- * المراجع المترجمة:

- "المنظومة الكلامية"، تأليف: د. بيترب. دنيس- د. اليوت بنشن، ترجمة: د. محيي الدين حميدي (PH.D.ESSEX)، مراجعة: الأستاذ الدكتور أحمد أبو حاقة، معهد الإنماء العربي 1991، الجماهيرية العربية الليبية.

المراجع الأجنبية:

1	« L'autobiographie (FAHRASA) du saufi marocain AHMAD IBN'AGIBA, jean louis Michon, Leiden 1969.
2	Ibni'AJIGA, Deux traités sur l'unité de l'existence », texte arabe établi, traduit et présenté par : Jean-louis Michon, préface de : Claude ADDAS, collection Hikma-bilingue AL Quobba ZARQUA, 1998, MARAKECH.
3	Le champ conceptuel de la beauté en Français moderne : Dukhacek,praha 1960, statni pedagogique, Naklada, telstini.
4	Dictionnaire de la linguistique, Georges Mounin, Quadrige/ presse universitaire de France, Mars 1993, N° 39136.
5	« Précis de lexicologie Française », Jacqueline picoche, ED : Nathan , Recherche, Paris 1986.
6	« Le saufi marocain AHMAD Ibn'Ajiba et son Mi'rage» Paris, librairie philosophique, J vrin 1979.

الدواوين الشعرية:

1	ديوان ابن عجيبة ضمن الفهرسة. حققها وقدم لها وعلق عليها الدكتور عبد الحميد صالح حمدان. ط1-1990. دار الغد العربي. القاهرة.
2	ديوان ابن الفارض. دار صادر. بيروت 1418هـ/1998م.
3	ديوان الحراق. صنعة محمد بن العربي الدلائي الرباطي، باعتناء الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي. منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث 3، ط2، 1423هـ/2003م، مطبعة الخليج العربي.

الرسائل الجامعية:

1	"الشعر المغربي على عهد محمد الثالث العلوي وابنه سليمان: موضوعاته الكبرى ومقوماته الفنية"، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها، إعداد: د. أحمد العراقي، مرقونة بكلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، 1991-1992.
2	"الأدب الصوفي في المغرب إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد: ظواهر وقضايا"، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها، تخصص: أدب مغربي، إعداد: عبد الوهاب الفيلالي.2000-2001م.مرقونة بكلية الآداب،ظهر المهراز، فاس.
3	"شعر التصوف بالمغرب خلال القرن 13هـ"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب، إعداد: عبد الوهاب الفيلالي، مرقونة بكلية الآداب بالرباط، 1991- 1992.
4	"الشعر الصوفي بتازة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين من خلال شعر إبراهيم التازي وابن يجبش التازي واحمد زروق"، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، إعداد: ربيعة بنويس، 2002- 2003، مرقونة بكلية الآداب، ظهر المهراز، فاس.
5	"مخصص ألفاظ الرثاء عند أبي ذؤيب الهذلي"، دراجة معجمية ودلالية، بحث لنيل الإجازة في اللغة العربية وآدابها، إعداد: نور الدين ناس الفقيه، مرقونة بكلية الآداب، جامعة محمد الأول وجدة، 1995- 1996.

المنشورات والمجلات والجرائد:

1	أبو سالم العياشي، المتصوف الأديب. د.عبد الله بنصر العلوي. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب 1419هـ/1998م.
2	"شعرية الخطاب الصوفي"، الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجا، محمد يعيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، سلسلة رسائل واطروحات رقم 1، 2002.
3	النوافح الغالية في الأمداح السليمانية، تأليف:حمدون بن الحاج السلمي (1174هـ/1232هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد العراقي.منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.1421 هـ/ 2000م.
4	"تحليل النص الشعري"، مصطفى السلاوي، مجلة الجامعة، كلية الآداب بوجدة، العدد 21-22-23/ 1992.
5	مجلة دعوة الحق، العدد 7، السنة 1974/16.
6	جريدة الميثاق، العدد 204-205- 206 – 207، سنة 1975.

فهرس الموضوعات

مقدمة..3

الفصل الأول

أولا: لمحة موجزة عن الواقع الصوفي والأدبي بالمغرب 11

أ. الواقع الصوفي..11

ب.الواقع الأدبي 15

ثانيا: الشاعر 19

ثالثا: الديوان المدروس 23

الفصل الثاني:

البنية المعجمية في شعر أحمد بن عجيبة ومضامينها

أولا: تعريف الحقول المعجمية وتحديدها..29

ثانيا: مضامين الشعر الصوفي عند أحمد بن عجيبة 33

أ. الحب الإلهي (التلويحات الإلهية) 33

ب. الحقيقة المحمدية 45

ج. التوسل 55

د. مدح سالكي الطريق وبيان شروطهم 59

هـ. الزهد 65

الفصل الثالث:

البنية التركيبية

أولا: البنية النحوية **73**

ثانيا: البنية البلاغية **77**

الفصل الرابع:

البنية الإيقاعية

أولا: تعريف الإيقاع وخصائصه **89**

ثانيا: الوزن الشعري **91**

ثالثا: القافية **97**

رابعا: حرف الروي **101**

خاتمة **105**

فهرس المصادر والمراجع **107**

فهرس الموضوعات **117**